ثقافة النهوض الاجتماعي

ح حسن موسى الصفار، ١٤٣٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصفار، حسن موسى
ثقافة النهوض الاجتماعي. / حسن موسى الصفار ـ القطيف، ١٤٣٣هـ
١٣٦ ص؛ ٢١,٥ × ١٤,٥سم
ردمك: ٩-٩٥٧٥-٠٠-٦٠٣-٩٧٨
١ـ علم الإنسان الاجتماعي ٢ـ علم الإنسان الثقافي أ.العنوان
ديوي ٣٠١,٢ ١٤٣٣/٢٨١٠
رقم الإيداع: ١٤٣٣/٢٨١٠
ردمك: ٩-٩٥٧٥-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢ م

حسن موسى الصفار

ثقافة النهوض الاجتماعي

بسم الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين اللَّهم صلِّ على محمد خاتم النبيين وتمام عدة المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

مقدمة

لن يتجاوز مجتمع واقعه المتخلف ما لم يتشرّب أبناؤه ثقافة تدفعهم نحو التغيير والنهوض. ذلك أن وراء كل واقع يعيشه المجتمع ثقافة تجذّر ذلك الواقع وتبرره وتحميه.

وقد قرّر القرآن الكريم هذه الحقيقة بصراحة ووضوح حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[سورة الرعد: الآية ١١] وما بالأنفس هي الثقافة التي تشكل الأحاسيس والمشاعر، وتصنع المواقف والسلوك.

والرسالات السماوية كانت تمثل ثقافة التغيير والنهوض التي جاء بها الأنبياء إلى أممهم، ليثيروا دفائن عقولهم، وليحرروا إرادتهم من أغلال واقع التخلف. حتى ينطلقوا في إعمار الأرض، وبناء مجتمع حضاري كريم.

فهي لم تكن مجرد دعوات لمعتقدات قلبية، وشعائر عبادية، لا شأن لها بمجريات الحياة. ولو كانت كذلك لما حاربها الحاكمون والمترفون.

إن دفاع القوى المتسلطة على المجتمعات عن الثقافة السائدة، ونهج

الأسلاف، في مقابل رسالات الأنبياء، لأن تلك الثقافة الموروثة هي التي تضمن استمرار الحال القائم، وتحمي مصالحهم، وتعزّز نفوذهم. يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[سورة الزخرف: الآية٢٣]. إنهم يخشون الثقافة الجديدة لأنها تمنح الناس الثقة بأنفسهم، وتشجعهم على التفكير، واتخاذ الموقف، وإعمال الإرادة، وبذلك ينفتح أمام الناس طريق التغيير والنهوض، ويتجاوزون هيمنة المتسلطين والمستكبرين.

إن المهمة الأساس لثقافة التخلف إقناع الناس بالاستسلام للواقع الذي يعيشونه، في أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بدعوى أنه الواقع الأفضل، أو بمبرر عدم القدرة على التغيير، أو لأن ذلك هو ما يأمر به الدين، وأن أي محاولة للتغيير قد تشكل خطراً على الهوية الدينية والقيم الأخلاقية، وذلك هو المبرر الذي أعلنه فرعون لحماية طغيانه. يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [سورة غافر، الآية:٢٦].

ومن أسوأ ألوان ثقافة التخلف هي الثقافة المنتسبة للدين، والتي تحرّف الكلم الديني عن مواضعه، وتجعل القرآن عضين، تنتقي منه ما لا يضرّ بمصالح قوى التخلف، كالشعائر العبادية، وتهمل ما يدعو إلى الإصلاح وإقامة العدل، وإحقاق الحق.

وهذا ما تعاني منه معظم شعوبنا الإسلامية، التي تخضع لثقافة تكرّس التخلف وتحميه باسم الدين.

لذا فإن من مقتضيات السعي لتجاوز حال التخلف، ضخ ثقافة سليمة تحفِّز المجتمعات نحو التغيير والنهوض، وتقودها إلى التنمية والبناء.

ثقافة تعيد للناس الثقة بأنفسهم، وأنهم قادرون على الفعل والتغيير، وأنهم مسؤولون عن الواقع الذي يعيشونه.

ثقافة تدفعهم إلى التفكير، واستثمار عقولهم، وتحررهم من الخرافات والأوهام والأساطير، بالنظر في سنن الكون والحياة، واستكشاف آفاق العلم والمعرفة، والاستفادة من تجارب الأمم والشعوب.

ثقافة تنشر المحبة بين الناس وتشجعهم على التعاون فيما بينهم، وتزيل الأحقاد والأضغان والحواجز المصطنعة، لتتضافر الجهود والطاقات لإنجاز برامج التنمية ومشاريع البناء والتطوير.

وبين يدي القارئ الكريم كلمات متواضعة تحمل شيئًا من هموم تلك الثقافة المطلوبة، كتبتها في أوقات مختلفة، ضمن مسار حركة التفاعل الاجتماعي. أرجو أن يكون فيها ما يدعم جهود المصلحين والعاملين من أجل مصلحة الدين والمجتمع.

واللَّهُ تعالى ولي التوفيق.

حسن بن موسى الصفار

٢٠ ذو الحجة ١٤٣٢هـ

١٦ نوفمبر ٢٠١١م

المجتمع وصناعة الرؤية

المجتمعات البشرية وخاصة في أوقات الأزمات والمشاكل، هي أحوج ما تكون إلى نُضْجِ الرأي ووضوح الرؤية، لأن ذلك يساعدها على تجاوز الأزمات وتخطي المشاكل، فالرأي الناضج والرؤية الواضحة، توجه مسيرة المجتمع نحو أفضل السبل والطرق، فلا تهدر الجهود والطاقات إلا فيما يعود بالربح والنفع المناسب لخدمة مصالح المجتمع.

لذلك ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة»[1].

ويحذّر الإمام الصادق عليه السلام من يبذل جهد دون رؤية، بأنه قد يخسر هدفه بدل أن يحققه، يقول عليه السلام فيما روي عنه: «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلا بعدًا»[2].

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار. ج٧٤، الطبعة الثالثة١٤٠٣هـ، (بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي)، ص٢٦٧.

(٢) محمد بن الحسن الحر العاملي. وسائل الشيعة، ج٢٧، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، (بيروت: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث)، ص٢٤.

وقديمًا قال الشاعر أبو الطيب المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

فالشجاعة في مكانها المناسب تؤتي الثمار الكبيرة، لذلك يرتبط استخدام القوة بالقرار السياسي، وتعطي المؤسسات العسكرية أولوية لجهة الدراسة والتخطيط.

هذه حقيقة لا يتنكر لها ولا يجادل فيها عاقل، فلا أحد يقول بجدوى العمل والتحرك دون فكرة وخطة تحدد الهدف، وترسم الطريق إليه، لكننا حينما نتحدث عن قضايا المجتمع، وصناعة الرأي والرؤية تجاهها، نحتاج إلى إثارة عدد من النقاط والملاحظات:

دور النخبة

نخبة كل مجتمع هم أصحاب الكفاءة ومواقع النفوذ والقدرة، من علماء دين وأكاديميين ومثقفين ورجال أعمال، هذه النخبة بما تمتلك من قدرات معرفية وخبرات عملية، هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن تكوين رأي وتشكيل رؤية حول قضايا المجتمع ومشاكله.

لكن المؤسف أن معظم أفراد هذه الشريحة قد لا يجدون أنفسهم معنيين ببحث ودراسة قضايا مجتمعهم، والاجتهاد في تقديم الحلول والمعالجات، إما للانشغال بالهموم الذاتية، أو لضعف الإحساس بمعاناة الناس.

وقد يكون لبعضهم رأي لكنه لا يريد أن يتحمل مسؤولية رأيه، فلا يجهر به، حذرًا من اعتراض هذه الجهة أو تلك، أو أن يجد نفسه مطالبًا بدور ما انطلاقًا من رأيه.

ثمة مشكلة أخرى تكمن في انعدام الأطر والبرامج التي يلتقي من خلالها أفراد هذه النخبة، فيتشاورون ويتناقشون لبلورة الآراء وإنضاجها، وللتعاون في تفعيلها، أسوة بمجتمعات أخرى تشكلت فيها ملتقيات ومؤسسات تجمع علماء الدين، أو المثقفين، أو الناشطين سياسيًّا واجتماعيًّا.

إن تخلّي النخبة عن ممارسة دورها الريادي في الحراك الاجتماعي، يطيل أمد معاناة المجتمع، ويفسح المجال لبروز توجهات قد تنقصها الحكمة أو النضج، مما يعود بالضرر على مصالح المجتمع ومستقبله.

وبعض أفراد هذه النخب قد يأخذ دورًا سلبيًّا تجاه الفاعليات الاجتماعية، لتبرير تقاعسه، فهو لا يطرح رأيًا ولا يقوم بدور، لكنه بالمرصاد لمبادرات الآخرين وأطروحاتهم.

مسؤولية المجتمع

إذا كانت النخبة هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن صناعة الرأي والرؤية، فإن ذلك لا يعني إعفاء جمهور المجتمع من المسؤولية، فكل أبناء المجتمع شركاء فيما يرتبط بقضاياهم العامة، لا يحتكرها أحد دون أحد، وهم جميعًا مسؤولون عن سوء الواقع الذي يعيشونه، ومطالبون بتغييره وإصلاحه.

يقول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[سورة التوبة، الآية: ٧١] ، وورد عنه ﷺ أنه قال:

«ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[١].

وحينما وصف اللَّه تعالى مجتمع المؤمنين بالتشاور بقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ فإنه لم يحصر التشاور في فئة محددة.

وحين أمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ بالمشاورة فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فإن ذلك يشمل جميع المسلمين، ولذلك كان ﷺ يخاطب جميع أصحابه قائلًا: «أشيروا عليَّ»[٢].

لقد منح اللَّه تعالى لكل إنسان عقلًا يفكر به، وقد تنقدح فكرة مهمة في ذهن إنسان عادي، وقد يلتفت أحد الأشخاص العاديين لأمر خطير لم ينتبه إليه غيره وكما قيل: «العلم كله في العالم كله».

يروي الحسن بن الجهم قال: «كنا عند الرضا عليه السلام فذكرنا أباه، فقال: كان عقله لا توازى به العقول وربما شاور الأسود من سودانه، فقيل له: تشاور مثل هذا؟ فقال: إن اللَّه تبارك وتعالى ربما فتح على لسانه»[٣].

ويشير أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى ضرورة التكامل بين أفراد المجتمع، فلا يشعر أحد مهما كان موقعه بالتعالي والاستغناء عن سائر الطاقات، ولا يستصغر أحد نفسه في إمكانية مساهمته في الشأن العام. يقول عليه السلام: «وَلَيْسَ امْرُؤٌ وإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ وتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ

(١) بحار الأنوار. ج٧٢، ص ٣٨.
(٢) علاء الدين علي المتقي الهندي، كنز العمال، الطبعة الخامسة ١٩٨٥م، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص٤٨٤، حديث٣٠١٥٣.
(٣) وسائل الشيعة. ج١٢، ص٤٥، حديث١٥٦٠٢.

عَلَى مَا حَمَّلَهُ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ ولا امْرُؤٌ وإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ واقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ»[1].

وإذا كان الفارق المعرفي كبيرًا في ماضي الزمان بين النخبة وعامة الناس، فإن المسافة تقلصت الآن إلى حدٍّ كبير، حيث انتشر التعليم، وتوفرت وسائل المعرفة والاطّلاع، وارتفع منسوب الثقة بالذات.

مما يدفع بتوسيع رقعة المشاركة الشعبية في الشأن العام، وهذا ما يحصل في البلدان المتقدمة، حيث يشارك الناس في اتخاذ كل القرارات المرتبطة بأوضاعهم، يُستفتون على دستور بلادهم، ويختارون قيادتهم السياسية، وينتخبون ممثليهم للتشريع والرقابة على السلطة التنفيذية.

ولا يتردد أي مواطن في تلك البلدان عن الإدلاء برأيه في أي شأن عام أمام وسائل الإعلام.

الفرص المتاحة

نعيش الآن عصرًا توفرت فيه وسائل صناعة الرأي، وأتيحت فيه فرص التعبير عن الرأي، فمعظم المعلومات عن قضايا المجتمع وشؤونه مبذولة متاحة لمن يرغب في الاطّلاع عليها.

وخبرة البحث والتحليل يمكن لأي أحد أن يكتسبها من خلال البرامج التي تبثها مختلف الوسائل الإعلامية والمعلوماتية.

---

(١) الشريف الرضي. نهج البلاغة، خطبة ٢١٦، الطبعة الأولى١٣٨٧هـ، (بيروت: دار الكتاب اللبناني)، ص٣٣٤.

ولم تعد هناك عوائق كبيرة تحول دون التعبير عن الرأي، حيث يستطيع الإنسان من غرفة نومه أن ينشر آراءه ويبثها إلى مختلف أنحاء العالم، عبر الشبكة العنكبوتية.

والجهات الأمنية والسياسية لم تعد قادرة على قمع الرأي وحجبه، كما كانت في السابق.

هذه الظروف المناسبة والفرص المتاحة، وإن لم تكن بشكل مطلق، تُسقط كل الأعذار والتبريرات التي يتذرع بها البعض للتقاعس عن المشاركة في الشأن العام. ويجب أن تكون دافعة لتوسيع رقعة المشاركة، وتضافر الجهود من أجل خدمة قضايا المجتمع.

مؤسسات لصناعة الرأي

بمبادرات رائدة، وجهود أهلية خيّرة، قامت في المجتمع مؤسسات تعنى بالنشاط الديني والثقافي والاجتماعي، من مدارس دينية، وجمعيات خيرية، ولجان ثقافية، وهيئات تهتم بالشعائر المذهبية..

والمجتمع في هذه المرحلة من تطوره يحتاج إلى مؤسسات معرفية تخدم صناعة الرأي، كمراكز المعلومات ومؤسسات البحوث والدراسات الاجتماعية، وعقد المؤتمرات الجادّة..

إننا بحاجة إلى قاعدة بيانات ومعلومات تُعنى بمختلف قضايا المجتمع، كالفقر والبطالة، وما يتعلق بالأمن الأخلاقي والاجتماعي، ومشاكل التمييز الطائفي.

كل هذه القضايا وأمثالها تحتاج إلى رصد وتوثيق، لا يستغني عنه من يريد صنع الرأي واتخاذ القرار.

كما أننا بحاجة إلى مراكز أبحاث ودراسات تشجع على دراسة قضايا المجتمع وبحثها في إطار علمي موضوعي، وتستقطب الكفاءات التخصصية في مجالاتها.

وإذا ما توفر الاهتمام بهذا البعد المهم، فستنطلق المبادرات نحوه، كما انطلقت نحو سائر المجالات، وكأيّ توجه جديد قد يكتنفه في البدء شيء من الهيبة والرهبة، لكن الإرادة والإقدام ستتجاوز بالمبادرين كل ذلك.

تنوع الآراء والخيارات

من الطبيعي أن تتنوع الآراء في المجتمع، وأن تتعدد الخيارات تجاه القضايا الحساسة، تبعًا لاختلاف التوجهات والمصالح، واختلاف زوايا النظر والتقويم لجهة تشخيص الواقع، أو احتمالات المستقبل.

ولا يمكن لأحد أن يحتكر حق الرأي، أو يفرض وصايته على المجتمع، فكما يحق له طرح رأيه والعمل على أساسه، فإن للآخرين الحقَّ نفسه.

لكن البعض يضيق ذرعًا بالرأي الآخر، ويطرح رأيه كخيار وحيد أمام المجتمع، لا خلاص إلّا به، ولا خير إلّا فيه، ويوجه سهام التجريح والتسفيه والإسقاط نحو الخيارات الأخرى ومن يتبناها.

إن طرح الرأي حق مشروع، ونقد الرأي الآخر أمر مقبول، لكن تسفيه الرأي الآخر والنيل من دُعاته، أمر مرفوض وخلق سيء، يكشف

عن غرور أو حقد.

ومن أخطر الأمراض المزمنة في مجتمعاتنا سوء التعامل مع الرأي الآخر، فعلى الصعيد الديني يتهم بالمروق والضلال والابتداع، وعلى الصعيد السياسي يتهم بالخيانة والعمالة.

وهي اتهامات يمكن أن يوجهها أي طرف لآخر، فلكل طرف مستوى من القدرة والتأثير، وكما قال الشاعر العربي:

جـاء دريـد شـاهرًا رمحـه إن بني عمك فيهم رماح

لكن ذلك يحوّل المجتمع إلى ساحة نزاع واحتراب داخلي، بدل أن تتجه الطاقات والجهود صوب الأعداء، ونحو خدمة قضايا المجتمع.

إن التشكيك في النيّات واتهام المقاصد عدوان وانتهاك لحرمات الآخرين، واعتراف بالعجز عن النقد الموضوعي للرأي الآخر، والإقناع بالرأي المُدّعى.

علينا أن نحوّل تنوع الآراء إلى فرصة إثراء للحراك الفكري الاجتماعي، وأن نفتح بتعدد الخيارات مجالات الاستيعاب لطاقات المجتمع، وأن نذكي بالتنافس الإيجابي روح الإبداع والعطاء في أوساط النخبة والجمهور.

المشروع الوطني والحراك السلمي

لا شك أن الإنجازات السياسية التي تحققت بفعل ثورات الربيع العربي إنجازات عظيمة مفصلية، يؤمل أن تكون تدشينًا وفاتحة خير لعهد جديد، تحقق فيه شعوب المنطقة تطلّعاتها في الحرية والعدالة والتنمية.

وما يجب أن يستوقفنا للتأمل، هو ما كشف عنه هذا الحراك الشعبي الواسع من تطور وتقدم في مستوى الوعي والتفكير عند جماهير الأمة. والذي شكل خلفية لسلوك جمعي حضاري فاجأ المراقبين والمتابعين على مستوى العالم.

فقد عاشت منطقتنا العربية زمنًا من الصراعات الأيديولوجية العنيفة، وانقسم الناس فيها إلى معسكرات يواجه بعضهم بعضًا، وانشغلوا بالجدل والنقاش حول أحقية هذا الدين، وبطلان الدين الآخر، وصحة هذا المذهب، وانحراف المذهب الآخر، وصوابية هذه النظرية، وفساد النظرية الأخرى.

هذا الانشغال بالخلاف الأيديولوجي الفكري كان على حساب الاهتمام بالواقع السيئ الذي يعيشه ويعاني منه الجميع، على اختلاف انتماءاتهم الدينية والفكرية.

فهم جميعًا يعانون من وطأة الاستبداد السياسي، وضغوط الحياة المعيشية الصعبة، وتعثّر التنمية في أوطانهم، والتخلف العلمي والتكنولوجي، وهيمنة النفوذ الأجنبي.

وبدل أن ينشغلوا بمواجهة هذه التحديات المصيرية، تعيش كل جهة تحدي الصراع مع الجهة الأخرى، وتسعى لتسجيل الانتصار عليها، بخوض معارك الخلاف الفكري، والتعبئة الإعلامية، والتحريض المتبادل على الكراهية والبغضاء.

هدرت الطاقات في معارك الصراع، وتبعثرت الجهود، وامتلأت القلوب والنفوس بالضغائن والأحقاد، وانزلقت بعض الساحات إلى حالات من الاحتراب واستخدام العنف بين مكوناتها. وكان ذلك التشرذم من أهم أسباب تكريس واقع التخلف، وبقاء الاستبداد، واستشراء الفساد.

لقد بُحّت أصوات المصلحين وهم يدعون الأمة للوحدة والتآلف، وتجاوز الخلافات والانقسامات، وكاد المصلحون أن ييأسوا من استجابة جماهير الأمة لدعوتهم، وهي دعوة القرآن، ونداء العقل، وسرّ تقدم الشعوب. فجاءت ثورات الربيع العربي لتنعش الآمال، وتحيي النفوس، فهذه الجماهير العربية في أكثر من بلد، تتحرك لمقاومة الاستبداد، وتطالب بحقوقها المشروعة في الكرامة والحرية والعدالة، متجاوزة الصراعات

الأيدلوجية، والخلافات الفكرية، والانتماءات السياسية المختلفة.

وفي هذا السياق قدم ميدان ساحة التحرير بمصر أروع أنموذج ومثال، حيث التحم المصريون، مسلمين ومسيحيين، إسلاميين وليبراليين، صوفية وأخوان مسلمين، قوميين واشتراكيين، ومن مختلف الشرائح والفئات، ليهتفوا بصوت واحد، وليؤكدوا على مطالب موحدة، ترتبط بمصالحهم المشتركة، وتستجيب لتطلعاتهم الوطنية، وتمسّ حياة كل مصري مهما كان دينه أو مذهبه أو انتماؤه.

وقبل الثورة المصرية، كانت ثورة تونس، قد انتهجت هذا النهج الحضاري، الذي أصبح منهجًا لسائر ثورات الربيع العربي.

ولعل الظاهرة الأهم في هذه الثورات الشعبية الرائعة، هو التزام منهج السلم، ورفض الانزلاق إلى ممارسة العنف، رغم قمع الأنظمة الاستبدادية، واستعراضها لقوة بطشها، ومحاولاتها استفزاز الثائرين، بإطلاق النار نحوهم، أو دفع العصابات المرتبطة بأجهزتها الأمنية لشنّ الهجمات عليهم، لكن الجماهير الثائرة أبدت انضباطًا عاليًا، وأفشلت خطط السلطة لجرها إلى ساحة العنف والاحتراب، رغم سقوط أعداد كبيرة من الشهداء والجرحى في المظاهرات والاعتصامات السلمية.

إن هذا السلوك الثوري الحضاري، يكشف عن تحقق تغيير عميق في نفوس أبناء الأمة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[سورة الرعد، الآية:١١].

إن الالتفاف حول مشروع وطني للإصلاح، تنخرط فيه كل أطياف

المجتمع، بعيدًا عن المشاريع الخاصة ذات اللون القومي أو المذهبي أو المناطقي، والتزام نهج السلم في الحراك الجماهيري، بعيدًا عن ممارسات العنف والإرهاب، هو السبيل الصحيح لإنقاذ شعوب الأمة من واقع الاستبداد والتخلف، ولتحقيق التطلعات والحقوق المشروعة، بقيام سلطة تنبثق من إرادة الشعب، وبناء دولة ديمقراطية عصرية.

ويمكن القول بكل ثقة واعتزاز أن لجهود المصلحين التنويريين ودعاة الوحدة والتقارب، دورًا أساسًا في إنضاج وعي الأمة، والارتقاء بمستوى التفكير بين أبنائها، وفي إنتاج هذا السلوك والأداء الحضاري.

فقد بذل الإصلاحيون قصارى جهدهم في استنهاض جماهير الأمة، ونشر الوعي في أوساط أبنائها، وفي بث ثقافة الوحدة والتسامح، والاهتمام بالمصالح العامة، وتجاوز الخلافات الجانبية، والتزام نهج السلم والاعتدال.

وقد عانى الخطاب الإصلاحي كثيرًا من ضغوط توجهات التطرف والتشدد، التي كانت تريد دفع ساحة الأمة إلى المزيد من حالات الصراع الداخلي، والاستغراق في الخلافات المذهبية والفكرية، والتمادي في ممارسة العنف، الذي سلب مجتمعات الأمة أمنها واستقرارها، وشوّه سمعتها وسمعة دينها على مستوى العالم.

وجاءت ثورات الربيع العربي لتعلن انحياز جماهير الأمة لخيار الوحدة الوطنية، ونهج السلم والاعتدال.

التأسيس للتسامح الديني

ينظر كثير من الدينيين للاختلاف الديني بين بني البشر نظرة سطحية ساذجة، حيث يعتقد كل منتمٍ إلى دين أو مذهب، أن ما هو عليه هو الحق والصواب، وما عداه خطأ وباطل، وهذا الاعتقاد أمر مفهوم؛ لأنه لو لم يعتقد ذلك في دينه ومذهبه لما صح له اتباعه والأخذ به.

لكن السطحية والسذاجة تكمن في تعجّبه من أتباع الأديان والمذاهب الأخرى، كيف يأخذون بدين باطل ومذهب فاسد؟ إنه يرى نفسه على الحق الذي لا نقاش فيه، والصواب الذي لا ريب فيه، فلماذا لا يتبعه الآخرون في دينه ومذهبه؟

ويمكن للإنسان أن يتجاوز هذا الشعور الساذج لو التفت إلى أن الآخرين قد يحملون النظرة نفسها تجاهه وتجاه عقيدته، إنهم يرون أنفسهم على الحق والصواب في انتمائهم الديني، وأن ما عداه باطل وضلال، وهم أيضًا يتعجبون ويتساءلون: لماذا لا يتبع هو سبيلهم؟ وصدق اللّهُ العظيم

إذ يقول: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّه عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[سورة الأنعام، الآية: ١٠٨].

هذا لا يعني أنه ليس هناك حق ولا حقيقة، فالانتماء الديني قائم على أساس التمسك بالحق ومفارقة الباطل.

لكن ما نريد الإشارة إليه والتأكيد عليه، هو أن المسالة الدينية عند بني البشر تحيط بها الكثير من التعقيدات وعوامل التأثير المختلفة، وهي ليست مسألة سهلة يمكن النظر إليها بسطحية أو يمكن حسمها بمناظرة ونقاش.

إن هذه النظرة السطحية للقضية الدينية هي وراء اندفاع الكثير من الدينيين للتبشير بمعتقداتهم بطرق فجّة ملتوية، لا تتفهّم ظروف الآخر، وقد تؤدي إلى الإساءة إليه والاصطدام به.

إن من حق الإنسان أن يفخر بعقيدته ويدعو إليها، لكن عليه أن يدرس حال من تتوجه إليه الدعوة، وأن يتعاطى معه باحترام، ويقرّ له بحقه في الرفض والقبول، وهذا هو المنهج الإلهي، يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[سورة النحل، الآية: ١٢٥].

والحكمة هي وضع الشيء في مكانه المناسب، فليس كل شخص، ولا كل وقت، ولا كل أسلوب مناسبًا للدعوة. كما لا يصح لك أن تتناقش

مع الآخرين المختلفين معك في القضية الدينية، إذا لم تكن مؤهلًا لإدارة الحوار بأفضل أساليبه، يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[سورة العنكبوت، الآية: ٤٦].

حيث تشير الفقرة الأخيرة من الآية إلى تجاوز تفاصيل الاختلاف للتأكيد على موارد الاتفاق والاشتراك.

إن القراءة الواعية لآيات القرآن الكثيرة التي تناولت مسألة الاختلاف الديني، تمنح الإنسان بصيرة ورشدًا في التعاطي مع المخالفين له في المعتقد الديني.

إننا نعيش مشكلة على صعيد اختلاف الانتماء المذهبي والفكري في مجتمعاتنا، حيث يسعى الأفراد إلى تكلف طرح الخلاف المذهبي في أي لقاء أو علاقة مع أحد من أتباع المذهب الآخر، والتيار الفكري الآخر.

روى أبو بصير قال: «قلت لأبي جعفر ـ الإمام محمد الباقر عليه السلام ـ: أدعو الناس إلى ما في يدي؟ فقال: لا. قلت: إن استرشدني أحد أرشده؟ قال: نعم، إن استرشدك فأرشده، فإن استزادك فزده، وإن جاحدك فجاحده»[1].

وعن ثابت أبي سعيد قال: قال لي أبو عبداللّه ـ الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «يا ثابت، ما لكم وللناس؟ كفّوا عن الناس ولا تدعو أحدًا إلى أمركم، فواللّه لو أن أهل السماء وأهل الأرض اجتمعوا على أن يضلّوا

(١) وسائل الشيعة. ج١٦، ص١٩١، حديث٢١٣١٨.

عبدًا يريد اللّه هُداه ما استطاعوا، كفّوا عن الناس، ولا يقول أحدكم: أخي وابن عمّي وجاري، فإن اللّهَ عزّ وجلّ إذا أراد بعبد خيرًا طيّب روحه، فلا يسمع بمعروف إلّا عرفه، ولا بمنكر إلّا أنكره، ثم يقذف اللّه في قلبه كلمة يجمع بها أمره»[1].

إن مثل هذه النصوص تهدف إلى ترشيد التعامل مع المخالفين في المعتقد، وعدم الابتذال والتهور في طرح قضايا الخلاف العقدي مع الآخرين.

الدين نشأة عائلية

كما يكسب الطفل اللغة والعادات وأنماط الحياة من عائلته التي يتربى في أحضانها، كذلك يتشرّب معتقدها الديني، وينشأ على حب ذات الرموز والمقدسات التي تؤمن بها عائلته، ويلتزم مذهبها ومسلكها.

هذا هو واقع الناس الديني في كل الأزمنة والبقاع، وهو السبب الرئيس لبقاء الأديان والمذاهب، حيث تتوارثها الأجيال عن طريق التربية والتنشئة.

فمن يولد ويتربى في عائلة مسيحية كاثوليكية يصبح مسيحيًّا كاثوليكيًّا، وسيكون أرثوذكسيًّا لو ولد من عائلة أرثوذكسية، أو بروتستانتيًّا إن تربى في أسرة بروتستانتية..

وكذلك من يولد في أسرة يهودية، يصبح يهوديًّا على مذهب أسرته، والشيء ذاته يحصل لدى العوائل الإسلامية، حيث يكون أبناؤها مسلمين

(١) وسائل الشيعة. ج١٦، ص١٩١، حديث ٢١٣١٨.

على مذاهب أهلهم سنة وشيعة وغيرها.

وقد يفارق الإنسان فيما بعد دين أهله ومذهب عائلته، إلى دين ومذهب آخر يقتنع به، لكنها تبقى حالات استثنائية قياسًا إلى واقع الحال العام في مسيرة المجتمعات البشرية..

ذلك الواقع الذي اصطدمت به رسالات الأنبياء عبر التاريخ، فمع ما زوّد اللّه تعالى به أنبياءه من حق بيّن، ورسالة واضحة، وبراهين صادقة، جاؤوا بها لأقوامهم، إلا أن الانشداد لدين الآباء، وعمق تأثير النشأة والتربية، كان يحول بين معظم أولئك الناس وبين الانقياد للحق، والاستجابة لدين اللّه تعالى.

يقول تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[سورة الزخرف، الآيتان: ٢٢-٢٣].

روى ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه»[1].. إشارة واضحة إلى هذه الحقيقة الاجتماعية.

ويتداول الجمهور الشيعي بيتين من الشعر في مجال الاعتزاز بالانتماء للمذهب، يتضمنان تأكيدًا على دور التربية والتنشئة في كسب الولاء الديني. وهما:

(١) ابن حجر الهيثمي. مجمع الزوائد، ج٧، طبعة ١٤٠٨هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٢١٨. ومثله في بحار الأنوار. ج٣، ص٢٨١.

لا عـذب اللّـه أمي أنهـا شربت حبّ الوصيّ وغذتنيه في اللبن
وكان لي والـد يهـوى أبا حسـنٍ فصرت من ذا وذي أهوى أبا حسن

البيئة الاجتماعية محضن ديني

لا تكاد تجد مجتمعًا بشريًّا في غابر الأزمان وحاضره، إلا وله صبغة وهوية دينية، وعضوية الفرد في مجتمعه تعكس تلك الصبغة الدينية على حياته، بدءًا من الأعراف والتقاليد الاجتماعية في استقباله كمولود جديد، وانتهاءً بمراسيم توديعه وتشييعه بعد مفارقة الحياة، مرورًا بقوانين الزواج، وأحكام الطقوس العبادية، ومقتضيات المناسبات والشعائر الدينية التي تسود مجتمعه.

حيث يجد الإنسان نفسه منساقًا للتفاعل والتكيّف مع أجواء بيته الاجتماعية في بعدها الديني. حتى لو كان غير مقتنع بكل أو بعض تلك التوجهات والممارسات، لأنه لا يريد أن يبدو عنصرًا شاذًا مخالفًا للجو العام، مما قد يعرضه للضغوط، ويجعله منبوذًا في مجتمعه.

إن معظم الناس في مختلف الأديان والمذاهب لا يتعاطون مع المعتقد الديني كمسألة شخصية وقرار فردي، كما هو الواجب عقلًا على الإنسان، بل يتعاطون مع المعتقد كخيار اجتماعي، فيوفّرون على أنفسهم عناء التفكير فيه، ومسؤولية البحث في الخيارات البديلة.

وقديمًا قال الشاعر العربي دريد بن الصمة:

وما أنا إلّا من غزية إن غوت غويت وأن ترشد غزية أرشد

لذلك يشعر أتباع كل دين ومعتقد بالرضا عما هم عليه، وتوحي لهم أجواء التوافق العام في مجتمعهم بالثقة في معتقدهم، خاصة وهم ينشأون على حبّ وتقديس زعامات وقيادات تأخذ في نفوسهم موقع التأثير والإجلال، ولا يتصورون أنها تسير بهم على خطأ أو توجههم لباطل.

وهذا ما نبّه إليه الإمام جعفر الصادق بعض أتباعه ممن بدا منهم الحماس والاندفاع في دعوة الآخرين إلى المعتقد والمذهب قال عليه السلام: «لا تخاصموا بدينكم، فإن المخاصمة ممرضة للقلب ... ذروا الناس، فإن الناس أخذوا عن الناس»[1].

ثم إن في كل مجتمع مراكز قوى ترى نفسها معنية بالدفاع عن دين المجتمع، وحماية معتقداته ومقدساته، في وجه أيّ تمرد أو خروج على المعتقد السائد، بدءًا من السلطة السياسية التي قد تستثمر المظهر الديني لتعزيز سلطتها، كما يحدثنا القرآن الكريم عن فرعون حين يرفع لواء الدفاع عن دين المجتمع في مقابل نبي اللّه موسى عليه السلام يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[سورة غافر، الآية: ٢٦].

وهناك المؤسسة الدينية في كل المجتمعات، ووظيفتها حراسة العقيدة، والدفاع عنها، والوقوف بحزم أمام أي رأي مخالف.

إضافة إلى سائر القوى الاجتماعية التي لا تتساهل في ردع من تسوّل له

(١) وسائل الشيعة. ج١٦، ص١٩١، حديث ٢١٣١٦.

نفسه الخروج على المسار الديني للمجتمع.

هذه الحال للبيئة الاجتماعية يصيّرها محضنًا للمعتقد الديني، تنشأ عليه الأجيال، وتلتزم به، وتنشدُّ إليه، ويحصّنها من التأثر بالدعوات المخالفة، والاتجاهات العقدية الأخرى.

وهو ما يفسّر لنا استمرارية الأديان والمذاهب وتوارثها عبر الأجيال، كما يفسّر لنا صعوبة مفارقة الأفراد للتوجهات الدينية السائدة في مجتمعاتهم. تلك الصعوبة التي لا يتحملها إلّا من يوطّن نفسه على مواجهة شتى ألوان المعاناة والضغوط، وهم في العادة قلة من أفراد المجتمعات، كما يتحدث القرآن الكريم في سير عدد من الأنبياء، ففي سيرة نبي اللّه نوح عليه السلام يقول تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[سورة هود، الآية ٤٠].

وفي سيرة نبي اللّه موسى عليه السلام يقول تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾[سورة يونس الآية: ٨٣].

نعم، يسهل الأمر إذا تمكن الاتجاه الآخر والدعوة الجديدة من تكوين مجتمع موازٍ، يوفّر بيئة بديلة تلبّي الحاجة لانتماء اجتماعي، والشعور بالحماية والأمن.

داء التعصب والمصلحية

إن شريحة من الناس يتمسكون بمسلكهم الديني تعصبًا وعنادًا، حتى وإن اتضح لهم الحق والصواب في غيره، وقد ينطلقون في اختيارهم الديني من دوافع المصلحة ونيل المكاسب والمآرب.

وهم بذلك يظلمون أنفسهم قبل أي أحد آخر، ويتحملون مسؤولية موقفهم أمام اللّه سبحانه وتعالى.

وليس على الأنبياء وأتباعهم المؤمنين تجاههم أي مسؤولية عدا التذكير والتبليغ، ثم تركهم وشأنهم وما اختاروا لأنفسهم.

يقول تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[سورة آل عمران، الآية: ٢٠].

إن بعض حملة المعتقدات والآراء تبرز لديهم نزعة ذاتية تدفعهم نحو الهيمنة على الطرف الآخر وإخضاعه، متجاوزين بذلك حدود التبشير بمعتقدهم وعرض رأيهم، وهذا ما لم يأذن اللّه تعالى به لأنبيائه فضلًا عن غيرهم من سائر الناس.

الرؤية القرآنية

إن من أعظم دلائل صدق القرآن الكريم، واقعية نهجه، وموضوعية تناوله للقضية الدينية في حياة البشر.

فمع تأكيد القرآن الجازم المدعّم بالأدلة والبراهين على حقانية الإسلام، وأنه وحده دين اللّه، وما عداه لن يقبله اللّه تعالى، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٩]،﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[سورة آل عمران، الآية: ٨٥]، إلّا أن القرآن يؤكد إلى جانب ذلك على حرية الإنسان في هذه الحياة حيث ﴿لاَ إِكْرَاهَ

فِي الدِّينِ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٥٦]، و﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف، الآية: ٢٩]، ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[سورة يونس، الآية: ٩٩].

وتقتصر مهمة الأنبياء في منطق القرآن على التبليغ والتذكير، وليس لأحدٍ منهم ممارسة الفرض والهيمنة على الناس: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[سورة الغاشية، الآيتان: ٢١-٢٢]، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[سورة الشورى، الآية: ٦]، ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[سورة النساء، الآية: ٨٠].

وعلى النبي ألّا ينزعج إذا لم يستجب الناس لدعوته، فهم يمارسون حقهم الطبيعي في الاختيار، ويتحملون مسؤولية أنفسهم أمام اللّه تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[سورة الشعراء، الآية: ٣]، ﴿طَه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾[سورة طه، الآيات: ١-٣].

ويعترف القرآن بوجود أتباع الديانات الأخرى، إلى جانب وجود أتباعه المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة الحج، الآية: ١٧].

ويوصي القرآن أتباعه بحسن التعامل مع المخالفين لهم في الدين، ما لم يكونوا معتدين: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة، الآية: ٨].

ويلفت القرآن النظر إلى أن المسألة الدينية لا تخضع عند أبناء البشر في الغالب لمنطق الدليل والبرهان، وإنما تتأثر بالميول والانشدادات، وتعتريها حالات التعصب والعناد. يقول تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٤٥].

ويروّض القرآن الكريم نفوس المؤمنين ليتعايشوا مع واقع التنوع الديني فهو قدر البشرية إلى يوم القيامة، فلا يتوهمنّ أحد بإمكانية الفصل والحسم بين الديانات في هذه الحياة الدنيا، إذ إنها مهمة مؤجلة إلى يوم القيامة، وتتم بين يدي اللّه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة الحج، الآية: ١٧]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة السجدة، الآية: ٢٥]، ﴿إِلَى اللّه مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٨].

هذه الرؤية القرآنية تؤسس لنهج التعايش والتسامح بين أبناء البشر على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، وتحمي أجواء السلم والوئام داخل المجتمعات المتنوعة الانتماءات، وبغياب هذه الرؤية الواقعية تقرع طبول الحروب الدينية، وتتوالى نُذُر صدام الحضارات، وتعاني المجتمعات من التمزق الداخلي والاحتراب المذهبي.

ومن المؤسف جدًّا أن تسود أجواء الصراع المذهبي والنزاع الطائفي في ساحة أمة يتلو أبناؤها مثل هذه الآيات من القرآن الكريم كل صبح ومساء ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [سورة محمد، الآية: ٢٤].

القرآن المهجور

لعلّ هذا العصر هو من أزهى عصور الاهتمام بالقرآن الكريم، إذ تنوعت مظاهر هذا الاهتمام، واتسعت رقعتها، وتكثفت فاعليتها، فهناك إحدى عشرة إذاعة مختصة ببث تلاوة القرآن، والبرامج المرتبطة به، في كل من: السعودية، إيران، مصر، المغرب، اليمن، الأردن، السودان، عمان، الإمارات، الكويت، البحرين.

وأصبحت نسخ المصحف الشريف متوفرة بمختلف اللغات، وبكميات كبيرة، فهناك مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وهو من أكبر المجمعات الطباعية في العالم، يقوم على مساحة قدرها ٢٥٠,٠٠٠م٢، ويعمل فيه نحو ألفي شخص، وينتج سنويًا ما متوسطه عشرة ملايين نسخة، وقد بلغ مجموع ما تم توزيعه من المصحف المطبوع من قبل المجمع أكثر من ١٩٣ مليون نسخة إلى الآن في ٥٠ لغة.

وفي هذا العصر برز قرّاء مبدعون تمكنوا من الأخذ بمجامع القلوب،

برقة أصواتهم، وحسن تلاوتهم، كما ظهر الألوف بل عشرات الألوف من المهتمين بحفظ القرآن الكريم كاملًا، حيث تقام لهم المسابقات في مختلف البلدان الإسلامية.

وهناك آلاف المدارس والمراكز لتعليم القرآن وتحفيظه، وقد انبثقت أخيرًا (الهيئة العامة لتحفيظ القرآن) التابعة لرابطة العالم الإسلامي، ولديها برنامج واسع لتحفيظ القرآن يتكفل عددًا من الحلقات والمدارس القرآنية في أكثر من ٦٥ دولة وعدد ٧٢ معهدًا قرآنيًّا متخصّصًا، عدد طلابها يتجاوز مئة ألف طالب وطالبة، أتمّ نحو واحد وثلاثون ألفًا منهم حفظ القرآن الكريم كاملًا.

إلى جانب مؤسسات ومراكز عديدة تهتم بمجالات مختلفة من شؤون القرآن الكريم، ولا شك أن هذه المظاهر من الاهتمام بكتاب اللَّه العزيز تثلج صدر الإنسان المسلم، وتزيده فخرًا واعتزازًا.

لكن السؤال الذي يفرض نفسه: هل تتأدّى بهذه الأنشطة والمظاهر ـ على أهميتها ـ وظيفة المسلمين ومسؤوليتهم تجاه القرآن؟ وهل يخرجون بها من دائرة شكوى رسول اللَّه ﷺ إلى ربه عن هجر الناس للقرآن؟

اتخذوا القرآن مهجورًا

أخبر القرآن الكريم أن رسول اللَّه ﷺ تقدم شاكيًا إلى ربه عن هجر الناس للقرآن، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[سورة الفرقان، الآية: ٣٠] والهجر هو الترك والإعراض،

والتعبير بقوله ﴿اتَّخَذُوا﴾ يعني أن الإعراض عن القرآن أصبح منهجية وطريقة معتمدة لديهم.

إن تعامل الإنسان مع أيّ رسالة تصله يتأثر بموقعية مرسلها في نفسه، فإذا كان المرسل مهمًّا لديه، وعزيزًا عليه، تنال عنده أكبر مستوى من الاهتمام، أما إذا كان المرسل عاديًّا وغير مهم في نظره، فنصيب رسالته سيكون الإهمال والإعراض.

وكمسلمين، فإننا نعتقد أن القرآن الكريم رسالة من اللَّه إلينا وإلى الناس أجمعين، فكيف يصحّ لنا إهمال هذه الرسالة التي تفضل علينا بإرسالها خالقنا ورازقنا، ومن بيده حياتنا وموتنا؟

والرسالة (القرآن) لا تتضمن أي طلبات لخدمة الرب جلَّ وعلا، فهو الغني عن العالمين، وإنما هي نهج نور وهداية، تضيء للإنسان درب حياته، وترشده إلى خيره وسعادته: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[سورة الإسراء، الآية: ١٠].

فما هو مبرر الإعراض إذًا عن رسالة عظيمة من مصدر عظيم؟!

مضامين القرآن ومناهجه

إن للقرآن الكريم جانبين: جانب الشكل ويتمثل في ألفاظ وكلمات آياته المجموعة بين دفتي المصحف الشريف. وجانب المضمون ويتمثل في القيم والمناهج والتشريعات التي تحملها آيات القرآن الكريم.

وإذا كانت العناية بصورة القرآن الخارجية ككلمات وألفاظ أمرًا

مطلوبًا، من حيث القراءة والحفظ والتلاوة والتفسير والنشر، إلّا أنه لا يصحّ الاكتفاء بذلك عن مرحلة الاستجابة لمضامين القرآن، بالتزام القيم التي يبشّر بها، وتفعيل المناهج التي يدعو إليها، وتطبيق التشريعات الإلهية التي يطرحها.

بل إن قيمة القراءة والحفظ لآيات القرآن إنما تأتي من قصد الاهتداء بها، وتجسيد معانيها في واقع الحياة. وإذا تجردت تلاوة القرآن وحفظه من جانب الالتزام العملي التطبيقي، فإنها تستلزم سخط اللَّه تعالى وغضبه، وهذا ما تصرح به آيات القرآن، ونصوص الأحاديث والروايات.

إن القرآن يوجه توبيخًا عنيفًا للذين يتلون آياته، لكنهم غير ملتزمين بقيم الخير والبر، يقول تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[سورة البقرة، الآية: ٤٤].

ويذمّ القرآن الكريم أتباع الديانات السابقة الذين يتراشقون فيما بينهم بالاتهامات، ولا يتخلّقون بالتعاليم الأخلاقية التي يقرؤونها في كتبهم المقدسة، يقول تعالى: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾[سورة البقرة، الآية: ١١٣].

إن القرآن الكريم يحمل للبشرية أفضل مشروع للتقدم والسعادة، والأمة التي تتبنى هذا القرآن وتحمله، يجب أن تقدم بواقعها العملي المجسّد لمفاهيم القرآن، نموذجًا مثاليًّا يستقطب سائر الأمم، ويجتذبها نحو منهج القرآن. لكن المؤسف حقًّا هو المسافة الكبيرة الفاصلة بين واقع الأمة وهدي

القرآن العظيم، فهي تعيش حياة التخلف والشقاء في الكثير من الجوانب، دون أن تستفيد من نور القرآن، وأشعته الهادية، مما يجعلها شبيهة بما حكاه القرآن الكريم عن اليهود، الذين أنزل اللَّه تعالى عليهم التوراة، لكنهم لم يتحملوا مسؤوليتهم تجاهها. يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[سورة الجمعة، الآية: ٥].

وما عسى أن يستفيد الحمار من حمله لأسفار العلم والمعرفة، وهو لا يمتلك قابلية الفهم، ولا إمكانية الاستفادة؟! كذلك هو حال الأمة التي تحمل أفضل الكتب الإلهية، والرسالات السماوية، لكنها لا تتوفر لديها إرادة الالتزام والتطبيق.

ويتحدث القرآن عمّن تتلى عليه آيات القرآن، لكنه لا يستجيب لها، ولا يكيّف حياته وفق هديها، بل يستمر على منهجه الخاطئ، وطريقه المنحرف، كأن صوت السماء لم يبلغ سمعه، أو كأن في أذنه صممًا يمنعه من السماع، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[سورة لقمان، الآية: ٧].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[سورة الجاثية، الآية: ٨]، صحيح أن هذه الآيات وردت في سياق الحديث عن الكافرين الذين رفضوا قبول الإسلام، لكنها تتحدث عن موقف سيئ في التعامل مع آيات الذكر الحكيم، بتجاهلها والإصرار على مخالفتها، والمتسم بهذه الصفة يستحق عذاب اللَّه الأليم، وإن كان يصنّف نفسه ضمن المسلمين والمؤمنين.

أما الأحاديث والروايات التي تحذِّر من إهمال تطبيق القرآن، والاكتفاء بمظاهر الاهتمام به، فهي كثيرة جدًا، نذكر منها بعض النماذج:

يقول الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٢١]. قال عليه السلام: يرتلون آياته، ويتفّهمون معانيه، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخشون عذابه، ويتمثَّلون قصصه، ويعتبرون أمثاله، ويأتون أوامره، ويجتنبون نواهيه، وما هو واللَّه بحفظ آياته وسرد حروفه، وتلاوة سوره، ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه، وأضاعوا حدوده، وإنما هو تدبر آياته يقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[١].

إن قوله عليه السلام: (حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده) كلمة عميقة، تضع حدًّا فاصلًا بين مجرد الاهتمام بمظاهر القرآن، وبين الالتزام بقيمه ومناهجه.

وأورد ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ عن ابن عباس وعن عبد اللَّه بن مسعود قالا: حقّ اتّباعه[٢].

وعن أنس عن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله قال: «ليس القرآن بالتلاوة، ولا العلم بالرواية، ولكن القرآن بالهداية، والعلم بالدراية».[٣]

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج١، الطبعة الأولى ١٩٩١م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٢٦٢.
(٢) إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي. تفسير القرآن العظيم، ج١، طبعة ١٩٨٠م، (حلب: مكتبة التراث الإسلامي) ص١٦٣.
(٣) كنز العمال. حديث ٢٤٦٢.

وعن ابن عمر عنه ﷺ: «اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرأه».[١]

وكم هو مرعب هذا الحديث المروي عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «كم من قارئ القرآن والقرآن يلعنه»[٢] لكنه يقرّر حقيقة واضحة، فمن يقرأ قوله تعالى: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[سورة هود، الآية: ١٨]، وهو يمارس الظلم، ومن يقرأ قوله تعالى: ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[سورة آل عمران، الآية: ٦١]، وهو يتعمّد الكذب، فذلك وأمثاله مصداق للحديث الشريف.

برنامج حياة

ليس القرآن مجرد نصٍّ أدبيّ يستمتع الإنسان بقراءته، ولا هو مجرد معلم تراثي، يحنّ الإنسان للاطّلاع عليه، وليس مجموعة من الأوراد والأذكار الروحية يتبرك الإنسان بتلاوتها، إنه فوق ذلك كله رسالة هداية وبرنامج حياة، إنه دستور عمل، ومشروع بناء وإصلاح.

وعلى المسلم أن يتعامل مع كل آية قرآنية باعتبارها دعوة عمل، وقرار تكليف، فيصيغ حياته، ويكيّف واقعه على ضوء هدي القرآن وتوجيهاته.

والاهتمام المطلوب من قبل الأمة بالقرآن الكريم هو تحكيمه في شؤون الحياة، والاستجابة لدعوته، وتطبيق مناهجه وتشريعاته في مختلف المجالات، أما إذا أعرضت الأمة عن مناهج القرآن، وغابت قيمه عن أجواء حياتها، واستبدلت بأحكامه قوانين أخرى، فإن ذلك هو مصداق

(١) المصدر نفسه. حديث ٢٧٧٦.
(٢) بحار الأنوار. ج٨٩، ص١٨٥.

اتخاذ القرآن مهجورًا، ولا يشفع للأمة حينئذٍ أمام اللَّه تعالى اهتمامها الشكلي الظاهري بالقرآن.

كما لا تستفيد الأمة من عطاء القرآن الحقيقي، إذا لم تأخذ بهديه عمليًا، ولم تجعل آياته في مورد التنفيذ والتطبيق.

ولو تأملنا واقع الأمة اليوم، ودرسناه على ضوء القيم والمعايير التي تنادي بها آيات القرآن الكريم، لوجدنا عمق الهوة الفاصلة، والبون الشاسع، بين واقع الأمة المعيش ومبادئ القرآن العظيمة.

النظر في كتاب الكون

ومن أوائل المفارقات التي تصدم المتأمل بين واقع الأمة ودعوة القرآن، التعامل مع الكون والطبيعة، حيث تركز أكثر آيات القرآن الكريم على الدعوة إلى النظر في كتاب الكون، واستكشاف أسراره، ومعرفة السنن والقوانين التي تحكم حركته.

إن عددًا كبيرًا من سور القرآن الكريم تحمل أسماء لظواهر طبيعية، ولموجودات كونية، وفي ذلك إشارة واضحة للاهتمام بقضايا الطبيعة والكون.

حيث نجد من أسماء سور القرآن مثلًا: البقرة، الأنعام، الرعد، النحل، الكهف، النور، النمل، العنكبوت، الدخان، الطور، النجم، القمر، الحديد، الجن، الإنسان، التكوير، الانفطار، الانشقاق، البروج، الفجر، الشمس، الليل، الضحى، التين، العلق، العصر، الفيل، الفلق ،الناس.

ونجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تأمر الإنسان بالنظر والتأمل في أمور الطبيعة والكون، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾[سورة عبس، الآيات: ٢٤ـ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾[سورة الطارق، الآيات: ٥ـ٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[سورة يونس، الآية: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[سورة الغاشية، الآيات: ١٧ـ٢٠].

هذا التوجيه المكثف في القرآن الكريم نحو الطبيعة والكون يستهدف تركيز الإيمان بتوحيد الخالق وعظمته أولًا، وانطلاق الإنسان نحو عمارة الأرض، واستثمار خيرات الكون ثانيًا.

فالإنسان خليفة اللَّه في الكون، ومطلوب منه عمارة الأرض، وكل ما في الحياة من قوى وإمكانات مهيأة لاستفادة الإنسان وخدمته، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾[سورة الجاثية، الآية: ١٣].

هذه دعوة القرآن، فأين واقع المسلمين منها؟ وما مدى توجههم لعلوم الطبيعة والكون؟ وما مستوى إنجازاتهم العلمية والعملية؟

أليس مؤلمًا أن أمم الأرض تتسابق نحو المعرفة والعلم، وتحقق المزيد من الاكتشافات والاختراعات، وتنجز الكثير من التقدم العلمي

والتكنولوجي، بينما تراوح أمة القرآن مكانها على هامش حركة الحضارة والعلم؟

هذه الأمة التي يبدأ قرآنها بالدعوة إلى المعرفة: ﴿اقْرَأْ﴾ وتركز أكثر آياته على النظر في كتاب الكون، كيف تعيش في أوحال الجهل والتخلف، وتصنّف ضمن قائمة الدول النامية، والعالم الثالث؟!

إن الإحصائيات والأرقام التي تتحدث عن مستوى البحث العلمي في العالم العربي والإسلامي قياسًا إلى واقع العلم والتقدم لدى الأمم الأخرى لتكشف عن تخلف عميق.

تشير بعض الإحصاءات إلى أن القوى البشرية التي تعمل في البحث العلمي في الوطن العربي، لا تزيد عن ثمانية آلاف باحث عربي، في حين أن هناك أربع مئة ألف باحث في الولايات المتحدة الأمريكية، وأربعين ألف باحث في إسرائيل!!

وأن البحث العلمي لا يظفر في ميزانيات الجامعات العربية إلّا بنسبة ١٪ بينما تخصص الجامعات الأمريكية ٤٠٪ من ميزانياتها لتعزيز وتوسيع نطاق البحث العلمي.

وأن نصيب البحث العلمي من إجمالي الناتج القومي العربي هو ربع واحد في المئة فحسب، مقابل ٣-٤٪ في الدول المتقدمة صناعيًّا وتقنيًّا[1].

(١) زين العابدين الركابي. (٨ آلاف باحث في الوطن العربي كله)، مجلة اليمامة، عدد ١٦٠٤، ص١١.

وقد أظهرت إحصاءات اليونسكو لعام ١٩٩٣م أن نصيب جميع الدول الإسلامية بملايينها الألف من البحث العلمي المنشور لا يتجاوز ١٪ في جميع فروع العلم!![1]

لقد انشغل المسلمون بالتغني بأمجاد الماضي، وبالسجالات والخلافات المذهبية، وبالاهتمامات القشرية، غير مكترثين بنداءات القرآن الصارخة، ودعواته المكثفة، نحو التوجه لعلوم الطبيعة والحياة، مع أنهم يسمعون تلك الآيات من إذاعات القرآن، ومن المقرئين المجيدين، وفي مختلف المجالس والمناسبات، أليس هذا مصداقًا لهجر القرآن على صعيد العمل والتطبيق؟

أنظمة العلاقات الاجتماعية

تنظيم العلاقات بين الناس على أساس العدل والإحسان، هو من أهم أهداف نزول القرآن وجميع الرسالات السماوية، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[سورة الحديد، الآية: ٢٥].

لذلك ركزت آيات القرآن الكريم على هذا الجانب، وأكدت على مبادئ أساس، يجب أن يلتزم بها الإنسان في علاقاته مع أخيه الإنسان، كأفراد ومجتمعات، وهي مبادئ تنطلق من الإقرار بوحدة النوع البشري، وتساوي أفراده كبشر في القيمة والاعتبار، وتمتعهم بالكرامة الإنسانية، واحترام حرية الإنسان، وحفظ حقوقه المعنوية والمادية.

(١) الدكتور راشد المبارك. فلسفة الكراهية، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، (بيروت: دار صادر)، ص٩٥.

إن سلامة العلاقات بين أفراد المجتمع، وبين شرائحه وقواه المختلفة، ثم بين المجتمع وسائر المجتمعات، ضمن الأسرة الإنسانية، يشكل هدفًا أساسًا، ومقصدًا رئيسًا لآيات القرآن وشرائع الدين.

من هنا تناولت نسبة كبيرة من الآيات القرآنية قضايا العلاقات الاجتماعية، كمنهج عام وكتشريعات جزئية.

لقد أكّد القرآن الكريم على مبدأ التعارف والاحترام المتبادل بين الأمم والحضارات البشرية، فالعلاقة بينها ليست علاقة صراع وصدام، بل علاقة تعارف وتعايش وحوار، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ ووجّه القرآن أتباعه إلى انتهاج سياسة العدل والإحسان تجاه المجتمعات الأخرى، المختلفة دينيًّا، ما دامت مسالمة غير معادية، يقول تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة، الآية: ٨]. ونهى عن الإساءة إلى الآخرين، وتجريح مشاعرهم، حتى على مستوى الحديث والكلام، وفي غمرة النقاش الديني معهم، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة العنكبوت، الآية: ٤٦]، ويقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[سورة البقرة، الآية: ٨٣]، ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾[سورة الأعراف، الآية: ٨٥].

وفي داخل المجتمع الإسلامي حذّر من الخصومة والنزاع : ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[سورة الأنفال، الآية: ٤٦]، وأمر بالتعاون والتكافل: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[سورة المائدة، الآية: ٢].

ومنع القرآن من الاستبداد ودعا إلى الشورى ومشاركة الناس في بحث شؤونهم وقضاياهم. يقول تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨]، ونهى القرآن الكريم عن اتهام الناس في أديانهم: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٩٤].

وحذّر القرآن في آيات عديدة من التجاوز على أي حق مادي أو معنوي: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[سورة المائدة، الآية: ٧٨].

ويفترض في الأمة التي تحتضن القرآن أن تعيش أفضل استقرار اجتماعي، بالالتزام بمبادئ العدل والحرية واحترام الكرامة وحفظ الحقوق. لكن نظرة فاحصة لأوضاع الأمة تكشف ما تعانيه الكثير من مجتمعاتها من فقدان الاستقرار الاجتماعي، بينما في المقابل تنعم المجتمعات الأخرى بنوع من الاستقرار، نتيجة لقبول التعددية، واحترام الرأي الآخر، والمشاركة في الأمور العامة.

إن القرآن الكريم يهتف بوحدة الأمة، وتتلى آيات الدعوة إلى الوحدة على مسامع المسلمين ليلًا ونهارًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[سورة المؤمنون، الآية: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[سورة الأنفال، الآية: ٤٦]، وأمثالها من الآيات الكريمة.

فلماذا تعيش الأمة في الكثير من بلدانها حالات التفرقة والاضطراب الداخلي؟ بينما يتعايش الأوربيون بلغاتهم المختلفة، وقومياتهم المتعددة،

ومذاهبهم المتباينة، ومصالحهم السياسية والاقتصادية المتنافسة، وهم الآن يوثقون عرى وحدتهم عبر إطار الاتحاد الأوربي، الذي يتكامل يومًا بعد آخر، ووصل عدد الدول فيه حوالي سبعًا وعشرين دولة أوربية.

إن الواقع السيئ الذي تعيشه الأمة في مجال اضطراب علاقاتها الداخلية، ناتج عن تجاهلها وإهمالها للمبادئ العظيمة التي أرساها القرآن في تنظيم العلاقات الاجتماعية، وذلك مصداق واضح من مصاديق اتخاذ القرآن مهجورًا.

الشباب والعودة إلى القرآن

العودة إلى القرآن هو خلاص البشرية من البؤس والشقاء الذي تعنيه رغم تقدمها المادي التكنولوجي الهائل.

والعودة إلى القرآن هو سبيل الأمة الإسلامية للعزة والكرامة وتجاوز حالة التخلف الحضاري الشامل.

فمن أين تنطلق رحلة العودة إلى كتاب اللَّه؟ ومن هي الفئة التي تقود مسيرتها؟

حينما هبطت آيات الذكر الحكيم لأول مرة على نبينا الأعظم محمد ﷺ فإن قلوب الشباب هي التي احتضنت القرآن، وألسنتهم هي التي أوصلته إلى المسامع، وسواعدهم خاضت معارك الجهاد لتثبيت منهج القرآن في الحياة.

فأول من شنفت آيات القرآن سمعه من رسول اللَّه كان شابًّا يافعًا

في أول سنوات شبابه وهو علي بن أبي طالب، الذي استوعب القرآن آية آية وحرفًا حرفًا كما يقول عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو سألتموني عن آية آية لأخبرتكم بوقت نزولها، وفيما نزلت، وأنبأتكم بناسخها من منسوخها، وخاصّها من عامّها، ومحكمها من متشابهها، ومكّيها من مدنيها».

ويقول عليه السلام في كلمة أخرى: «إني لأعرف ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وفصله من وصله، وحروفه من معانيه، واللَّه ما حرف نزل على محمد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله إلا وأنا أعرف فيمن أنزل، وفي أي يوم نزل، وفي أي موضع نزل»[1]. وإلى أن انقطع الوحي بوفاة رسول اللَّه صلى الله عليه وآله واكتمل نزول القرآن، كان علي لا يزال في مرحلة الشباب، حيث لم يتعدّ عمره الثالثة والثلاثين.

وأول صادح بالقرآن في ملأ قريش كان شابًّا اسمه عبد اللَّه بن مسعود، وهو سادس ستة سبقوا إلى الإسلام، ويتحدث عن موقفه البطولي أحد أصحابه قائلًا: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله بمكة عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه إذ اجتمع يومًا أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه وآله فقالوا: واللَّه ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟

فقال عبد اللَّه بن مسعود: أنا.

قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلًا له عشيرة يمنعونه من القوم

(١) بحار الأنوار. ج٨٩، ص٨٧، حديث ٢٣.

إن أرادوه.

قال: دعوني فإن اللَّه سيمنعني.

فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، فقام عند المقام، ثم قرأ: بسم اللَّه الرحمن الرحيم ـ رافعًا بها صوته ـ الرحمن. ثم استقبلهم يقرؤها.. فتأملوه قائلين: ماذا يقول ابن أم عبد؟ إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد.. فقاموا إليه وجعلوا يضربون وجهه، وهو ماضٍ في قراءته، حتى بلغ منها ما شاء اللَّه أن يبلغ..

ثم عاد إلى أصحابه مصابًا في وجهه وجسده، فقالوا له: هذا الذي خشيناه عليك..

فقال: ما كان أعداء اللَّه أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدًا.

قالوا له: حسبك، فقد أسمعتهم ما يكرهون.

كان الشاب ابن مسعود يقرأ القرآن بتفاعل صادق حتى روي عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «من أحبّ أن يسمع القرآن غضًّا كما أُنزل فليسمعه من ابن أم عبد»[1].

وأول من حمل آيات القرآن الكريم إلى المدينة، وعلّم أهلها القرآن، وهيأها لتكون مهجر الرسول ﷺ ودار الإسلام، هو الشاب المجاهد مصعب بن عمير، والذي اعتنق الإسلام في نضارة شبابه، حيث أخذت

(١) بحار الأنوار. ج٣١، ص٢١٣.

آيات القرآن التي سمعها لأول مرة من رسول اللَّه ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم بمجامع قلبه، وأحدثت تحولًا فوريًّا في وجوده ونظرته للحياة.. فتخلى عن حياة الدلال والترف والرخاء، حيث كان أرفه شاب بمكة، كما يقول عنه رسول اللَّه ﷺ: «لقد رأيت مصعبًا وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه، ثم ترك ذلك كله حبًّا للَّه ورسوله» .

لقد انجذب بكلّه إلى القرآن، وتشرّبت نفسه مفاهيمه ومعانيه، وارتكزت في ذهنه وقلبه آياته وسوره، فاختاره الرسول ﷺ أول سفير للإسلام خارج مكة، وانتدبه ليعلم أهل المدينة القرآن، ويفقههم في الدين.

«كان في أصحاب الرسول ﷺ يومئذٍ من هم أكبر منه سنًّا، وأكثر جاهًا، وأقرب من الرسول ﷺ قرابة.. ولكن الرسول ﷺ اختار مصعب الخير، وهو يعلم أنه يكل إليه بأخطر قضايا الساعة، ويلقي إليه بمصير الإسلام في المدينة، التي ستكون دار الهجرة، ومنطلق الدعوة[1]».

تلك كانت أمثلة ونماذج من جيل شاب وعى القرآن بدء نزوله وحمله رسالة ومنهج حياة، وأرسى على ضوء هديه أساس الحضارة الإسلامية الشامخة..

أما لماذا كان الشباب هم جيل الاستجابة للقرآن أكثر من غيرهم؟

فذلك للأسباب التالية:

(١) خالد محمد خالد. رجال حول الرسول، طبعة ١٤٢٢هـ، (بيروت: دار الفكر)، ص٢٧.

١. أنهم كانوا في مرحلة تفتح الفكر، وتشكيل الوعي، ووجدوا أمامهم أسئلة ملحّة عن سرّ الحياة، وسبب الوجود، وغاية الخلق، ورأوا في القرآن الكريم الهدي والهداية إلى الإجابات الشافية المقنعة، التي تنسجم مع الفطرة وتتوافق مع المنطق وبديهيات العقل.

٢. وكشباب مرهفي المشاعر والأحاسيس، كانوا يتحسّسون مساوئ الواقع الجاهلي المعيش، من عبادة أصنام، وفساد أخلاق، ونشوب حروب وفتن، لكنهم لا يعرفون طريقًا للخلاص والعلاج، وجاءت آيات القرآن الحكيم، لتمنحهم البصيرة والنور، ولتضع أقدامهم على طريق النجاح والسلام، فاستقبلوها بإخلاص واندفاع.

٣. كانت قلوبهم أنقى وأصفى من الآخرين، فلأنهم شباب حديثو عهد بالحياة لم تتمكن المصالح من نفوسهم، ولم تسيطر السلبيات على أذهانهم، ولم تتكرس المساوئ والمفاسد في سلوكياتهم.. فانشدادهم للواقع الفاسد كان ضعيفًا ومحدودًا، مما جعلهم أكثر قدرة على التحرر منه، والإفلات من هيمنته، والانطلاق نحو أفق جديد.

٤. ومرحلة الشباب تخلق عند الإنسان ثقة بالذات، ورغبة في المغامرة، وتطلعًا لمستقبل أفضل.. وذلك ما يتناغم مع هدي آيات القرآن الحكيم، ويخلق الأرضية المناسبة للتفاعل معها.

٥. وتوجه الرسول ﷺ لهم وإقباله عليهم، وما كان يفيضه عليهم من

حب وحنان، ويبديه لهم من تقدير واحترام، في مجتمع كان السن والمال فيه مناط المكانة والزعامة، كل ذلك جذبهم إلى رسول اللَّه ﷺ، واستقطبهم إلى رسالة اللَّه تعالى، فالخلق العظيم الذي تحلّى به المصطفى ﷺ، وغمر به أولئك الشباب التائهين المهملين في مجتمعهم، هو الذي صنع شخصياتهم القيادية، وفجّر مواهبهم وكفاءاتهم وطموحهم نحو العزة والتقدم.

وكما بدأت مسيرة القرآن الكريم على أيدي الشباب، فإن رحلة العودة إلى القرآن ستكون على أيديهم المباركة إن شاء اللَّه.

فمن ينهل من القرآن في فترة شبابه، ويرتشف من نميره العذب، فإن بناءه النفسي، وتشكيله الفكري، وممارسته السلوكية، ستصاغ على هدي الوحي، فشخصية الإنسان تتبلور معالمها، وتتحدد سماتها في فترة الشباب، فإذا كان فيها قريبًا من القرآن، متتلمذًا على آياته، فسيكون قرآنيًّا في توجهاته ومسارات حياته.

ورد في حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «من قرأ القرآن وهو شاب مؤمن، اختلط القرآن بلحمه ودمه، وجعله اللَّه عزّ وجلّ مع السفرة الكرام البررة، وكان القرآن حجيزًا عنه يوم القيامة»[1].

إن مؤشرات كثيرة تلوح في الأفق تبشر بمستقبل واعد لأمتنا

(١) محمد بن يعقوب الكليني. الكافي، ج٢، طبعة ١٤٠٥هـ، (بيروت: دار الأضواء)، ص٦٠٣.

الإسلامية على أيدي شبابها الأعزاء المؤمنين، فهذه الصحوة الإسلامية المباركة، والأنشطة الدينية المنتشرة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، والبرامج القرآنية في تلاوة القرآن وتحفيظه وتعليمه وتفسيره، التي يقبل عليها الشباب الطيبون، كلها بشائر خير على نهضة حضارية قادمة.

حركة الوعي والثقافة في المجتمع

يقاس مستوى تقدم أيّ مجتمع من المجتمعات، بمقدار فاعلية حركة الوعي والثقافة في أوساطه، فعلى أساسها تتحدد مكانة المجتمع، وتصاغ شخصيات أبنائه.

والوعي كما يقول علماء اللغة العربية هو: «حفظ القلب الشيء. وعى الشيء والحديث يعيه وعيًا وأوعاه: أي حفظه وفهمه. وفلان أوعى من فلان، أي أحفظ وأفهم. وفي الحديث: نضّر اللَّه امرأً سمع مقالتي فوعاها ـ أي فهمها ـ. وفي حديث أبي أُمامه: لا يعذّب اللَّه قلبًا وعى القرآن. قال ابن الأثير: أي عقله إيمانًا به وعملًا، فأما من حفظ ألفاظه وضيّع حدوده فإنه غير واعٍ له»[1]. وإنما سمي الإناء إناءً لأنه يحفظ ما يوضع فيه.

وجاء في القرآن الكريم: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾

(١) محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب، ج٦، طبعة ١٤٠٨هـ، (بيروت: دار الجيل، دار لسان العرب)، ص٩٥٤.

[سورة الحاقة، الآية:١٢]. وذلك في سياق الحديث عن أخبار الأمم السالفة، وكيف كان مصيرهم إلى الدمار، بسبب انحرافهم عن منهج اللَّه وفسادهم الاجتماعي. حيث تشير الآية الكريمة إلى أن هذه الأخبار والمعلومات التاريخية ليست للتسلية أو للترف الفكري، وإنما المقصود منها حصول الوعي بفهم سنن الحياة وقوانين التاريخ، وعبّر بالأذن الواعية؛ لأن السمع هو نافذة الإنسانية على أخبار التاريخ الماضي غالبًا، وهي مجرد جهاز توصيل، والفهم والإدراك يتم فيما وراء الأذن حيث قلب الإنسان وفكره، هو الوعاء الذي تجتمع فيه المعلومات وتختمر لتتحول إلى فكرة ورؤية واستنتاج.

أما الثقافة لغةً فهي من ثَقِفَ الشيء أي حذقه وفهمه. ورجل ثَقِفٌ أي حاذق الفهم. وقال ابن السُكّيت: رجل ثَقْف لَقْف إذا كان ضابطًا لما يحويه قائمًا به. ويقال: ثَقِفَ الشيء وهو سرعة التعلم. وقال ابن دريد: ثَقِفْتُ الشيء: حذقتُه، وثقفته إذا ظفرت به. قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾[سورة الأنفال، الآية:٥٧] أي إذا أدركتهم وسيطرت عليهم. وفي حديث الهجرة: وهو غلام لَقِن ثَقِف أي ذو فطنة وذكاء[١].

واصطلاحًا للثقافة تعريفات كثيرة تزيد على مئة تعريف، وأشهرها تعريف «تايلر» عالم الانتروبولوجيا البريطاني، الذي عرّف الثقافة بأنها: ذلك الكلّ المركب من المعلومات والمعتقدات والفنون والأخلاق والعادات والتقاليد التي يكتسبها الإنسان بصفته عضوًا في المجتمع.

(١) لسان العرب. ج١، ص٣٦٤.

الثقافة والوعي في حياة الإنسان

يدرك كل إنسان دور الجانب المادي في حياته، فبه ينظم شؤون معيشته من غذاء ولباس وسكن وما شابه، لكن دور الوعي والثقافة ليس واضحًا لدى الكثيرين، حيث لا يعتبرونها من أساسيات الحياة، بل هي شأن كماليٌّ زائد.

والواقع أن حياة الإنسان تتأثر بثقافته ووعيه، وكلما كان أكثر ثقافةً ووعيًا، كانت حياته أرقى وأفضل، وانخفاض المستوى الثقافي يقابله تدنٍ وانحطاط في المستوى الحياتي العام.

فمثلًا في الجانب الصحي هناك فرق واضح بين من يحمل ثقافةً ووعيًا صحيًّا، ومن يفتقد ذلك، ويتجلى الفارق في نوعية الغذاء، وفي أسلوب الحياة، والتعامل مع الأمراض والحوادث، بل في تعاطي الإنسان مع أعضاء جسمه، فكم من مرض خطير يحصل بسوء تصرف وممارسة خاطئة ناتجة عن الجهل وعدم الوعي.

وفي الجانب المالي فإن أفضل المستثمرين هم مَن يعتمدون على متابعة حركة الاقتصاد، وفهم تأثير الأحداث والتطورات فيها، فوعي الإنسان وثقافته في هذا المجال تجعله أقدر على استثمار الفرص، وتحقيق المكاسب، بينما تفوت غير المتابع المطّلع فرص كثيرة، ويخسر مصالح ومكاسب.

وكمثال قريب على ذلك ما ذكرته بعض التقارير الاقتصادية من أن العرب يخسرون سنويًّا في أوربا أكثر من ٢٥٠ مليون دولار، نتيجة جهلهم

وغفلتهم عن قانون استرداد الضريبة المضافة، ففي دول الاتحاد الأوربي تؤخذ ضريبة على كل بضاعة أو سلعة بالنسبة للمواطن والمقيم، أما السائح فإن بإمكانه استرجاع ضريبة البضائع التي يشتريها و يخرج بها من ملابس وهدايا وأجهزة، بتقديم فواتيرها لجهة خاصة في المطار عند المغادرة، لكن الكثيرين لا يعرفون ذلك أو لا يهتمون به فيخسرون مبالغ كبيرة.

ونجد الآن في مجتمعاتنا كيف أن بعض الناس يمتلكون مبالغ كثيرة، كالمتقاعدين الذين يستلمون ادخارهم وحقوقهم من الشركات عند سن التقاعد لكنهم لا يعرفون كيف يوظفونها ويستثمرونها، فتتبخر من أيديهم هنا وهناك.

كما نلحظ أن بعض الأشخاص يعيشون وضعًا اقتصاديًّا سيئًا مع أن لهم دخلًا، إلّا أنهم لا يعتمدون التخطيط والتدبير في نفقاتهم ومصروفاتهم.

ومثل ذلك يجري في الحياة العائلية والعلاقات الاجتماعية حيث للثقافة والوعي دور أساس في نجاحها وارتقائها، بينما يصيبها التدهور والتأزم بسبب الجهل وانعدام الوعي غالبًا.

الوعي الديني

للوعي والثقافة في المجال الديني أهمية خاصة؛ لأن تدين الإنسان يجب أن يكون نتيجة قناعة منه، وإيمان واندفاع ذاتي، وليس حالة من الاسترسال والانسياق الوراثي أو الاجتماعي.

كما أن للدين قيمًا ومبادئ، ومقاصد وغايات، فإذا لم يتوفر للإنسان

الوعي بذلك، يصبح تدينه مظاهر وممارسات قشرية فارغة.

وضعف الوعي بالدين يعرّض الإنسان لأحد خطرين بليغين: إما الانسلاخ من الدين، وخاصة حينما تعصف به الشبهات والتيارات المضادة، فلا يجد ما يعتصم به من وعي ومعرفة راسخة.

أو أن يُستغل باسم الدين من قبل زعامات مصلحية، و قوىً انتهازية، ففي بداية عام ٢٠٠٠م حصلت مأساة مروعة في جنوب غرب أوغندا، على يد قسٍّ ينتمي إلى الكنيسة الكاثولوكية، يقود حركة دينية باسم (مجموعة إحياء الوصايا العشر) وقد أقنع أتباعه بأن نهاية العالم وشيكةٌ، وستقوم القيامة، ودفعهم إلى بيع بيوتهم وممتلكاتهم، ليشتروا عَبره أماكن لهم وقصورًا في الجنة، وحدد لهم يومًا معينًا وساعةً محددةً ليدخلوا الكنيسة ويضعوا حدًّا لحياتهم بأيديهم لتلتحق أرواحهم بالملكوت الأعلى، وهو سيسافر إلى أوربا ومنها يسبقهم إلى الجنة ليستقبل أرواحهم!! وبالفعل دخل حوالي ٤٧٠ شخصًا كنيستهم، وأغلقوا عليهم الأبواب والنوافذ، وثبتوا المسامير فيها حتى لا يفكر أحد في الهرب والخروج ويخسر فرصة الانتقال إلى الفردوس، وصبّوا الوقود في أنحاء الكنيسة وأشعلوا النار، وماتوا كلهم اختناقًا واحتراقًا، وفيهم عدد من النساء والأطفال!!.

وقد تناقلت الخبر وكالات الأنباء، وتباينت التفسيرات والتحليلات حول دوافع الحدث وتفاصيله.

إن هذا الحدث نموذج صارخ للتضليل والاستغلال الديني، والجهل وضعف الوعي والثقافة يوفّر الفرصة لظواهر وممارسات من هذا القبيل،

وضمن كل دين أو مذهب قد تظهر وتنمو قوى ومراكز تستغل الدين لاستعباد الناس واستخدامهم، ورأينا حتى في عصرنا الحاضر كيف انبثقت جماعات وحركات منحرفة باسم الإسلام، دفعت أتباعها إلى أبشع الممارسات الإرهابية، والسلوكيات الرجعية المتخلفة.

إن الوعي الديني الصحيح والثقافة السليمة هو ضمانة الاستقامة، وتجاوز محاولات الاستغلال والتضليل. جاء في صحيح البخاري عن أبي عبد الرحمن عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: بعث النبي صلى الله عليه وآله سريةً ـ فرقة صغيرة من الجيش ـ فاستعمل عليها رجلًا من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب ـ ذات يوم ـ فقال: أليس أمركم النبي صلى الله عليه وآله أن تطيعوني؟ قالوا: بلى قال: فاجمعوا لي حطبًا، فجمعوا. فقال: أوقدوا نارًا، فأوقدوها. فقال: ادخلوها، فهمّوا وجعل بعضهم يمسك بعضًا، ويقولون: فررنا إلى النبي صلى الله عليه وآله من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه. فبلغ النبي صلى الله عليه وآله فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف»[1].

إذًا فالثقافة والوعي لها تأثير كبير على حياة الإنسان في مختلف المجالات، وكلما كان الإنسان أكثر ثقافة ووعيًا كانت حياته أرقى وأفضل، فهي ليست أمرًا ترفيًّا كماليًّا، لأن الإنسان تنطلق ممارساته ومواقفه من قناعاته وأفكاره، والثقافة الأفضل تنتج قناعات ورأيًا أفضل، ينعكس على سلوك الإنسان وتصرفاته.

(١) محمد بن إسماعيل البخاري. صحيح البخاري، ج٣، كتاب المغازي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص١٠٤، حديث٤٣٤٠.

رؤية الدين

النصوص الدينية تعطي لقضية الوعي والثقافة اهتمامًا كبيرًا لا يعدله أيّ اهتمام، فالقرآن الكريم يقرر أن هناك فارقًا مائزًا لا ينكر بين العالمين الواعين وغيرهم، ويتساءل على سبيل التقرير والإثبات ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[سورة الزمر، الآية:٩]... ويكفي أن نعلم أن أول آية نزلت من القرآن الكريم هي دعوة إلى الثقافة والوعي يقول تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[سورة العلق، الآيات:١-٥] إنها أمر بالقراءة أي الفهم والمعرفة، وإشادة بالقلم كأداة للعلم والتعليم. وهناك سورة أخرى باسم سورة القلم، يبدأها اللَّه تعالى بالقسم بالقلم وما يخطه، في مجتمع كانت تسوده الأمية، ومن يستطيعون القراءة والكتابة فيه عددهم محدود جدًّا، يقول تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم، الآية:١].

وهناك أحاديث وروايات كثيرة تعتبر فهم الإنسان ومعرفته هي المقياس لمستوى تدينه ومكانته عند اللَّه، كالحديث الوارد عنه ﷺ: «أفضل المؤمنين إيمانًا أفضلهم معرفةً» وكالحديث المروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: «بعضكم أكثر صلاةً من بعض، وبعضكم أكثر حجًا من بعض، وبعضكم أكثر صدقة من بعض، وبعضكم أكثر صيامًا من بعض، وأفضلكم أفضلكم معرفة»[1].

(١) بحار الأنوار. ج٣، ص١٤.

وورد عن النبي ﷺ: «ساعة من عالم يتكئ على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عامًا»[١].. وجاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «فضل العلم أحبّ إليّ من فضل العبادة»[٢] ونقرأ في مفاتيح الجنان المخصص للأدعية والزيارات والنوافل والأوراد لمؤلفه المعروف بالورع والتقوى الشيخ عباس القمي رحمه اللّه، عن أعمال ليلة القدر، وبعد ذكره للعديد من المستحبات فيها من صلوات وأدعية وأذكار لليلتي الحادي والعشرين والثالث والعشرين من شهر رمضان، يقول: «وقال شيخنا الصدوق فيما أملى على المشايخ: ومن أحيا هاتين الليلتين بمذاكرة العلم فهو أفضل»[٣].

التثقيف الذاتي

إدراك قيمة الوعي والثقافة، والاستجابة لتوجيهات الدين، يعني أن يهتم كل إنسان بتثقيف نفسه، وتحصيل أكبر مستوى من الوعي لذاته، خاصةً ونحن نعيش عصرًا توفرت فيه وسائل العلم والمعرفة، وفرص التثقيف والوعي.

فالإنترنت مثلًا وهو من أهم إنجازات البشرية في هذا العصر يفتح أمام الإنسان آفاق العلم والمعرفة لمن يتطلبها، لكن المؤسف أن البعض يسيء الاستفادة من هذه الوسيلة الهامة، فيستخدمها في الاتجاهات السيئة.

---

(١) بحار الأنوار. ج٢، ص٢٣.
(٢) المصدر نفسه. ص١٨.
(٣) عباس القمي. مفاتيح الجنان، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٢٩٦.

مع نهاية العام ٢٠١١م بلغ عدد المشتركين في شبكة الانترنت على مستوى العالم ٢,٢٩ مليار مشترك، وفي الشرق الأوسط الذي يبلغ عدد سكانه أكثر من ٢١٦ مليون وصل عدد المشتركين في الانترنت ٧٢مليون بمعدل ٥,٣٣٪ من عدد السكان و١,٣٪ من عدد مستخدمي الانترنت في العالم، بينما وصل عدد المشتركين في الكيات الإسرائيلي الغاصب إلى ٥ مليون و٢٦٣ ألف، وعدد سكانه ٧ مليون و٤٧٣ ألفاً بنسبة بلغت ٧٠,٤٪ من مجمل عدد السكان[1]!! وفي ذلك مؤشر على ضعف وتخلف مستوانا الثقافي.

كما أن واقع حركة الكتاب في بلداننا يكشف هو الآخر عن مدى هذا التخلف والضعف، فالعالم الآن يستهلك سنويًّا ٨٠ مليون طن من الورق لصناعة الكتب والمطبوعات، حيث يطبع سنويًّا مليون كتاب جديد في عشرين بليون نسخة، إضافة إلى نصف مليون مطبوعة دورية في مئتي بليون نسخة، ويقال أن هذا المقدار من الورق الذي يستهلكه العالم في المطبوعات يكفي لتغليف الكرة الأرضية سبع مرات ومعلوم أن مساحتها تبلغ ١٣٦ مليون كيلومتر مربع.. فما هو نصيبنا نحن من حركة الكتاب على مستوى العالم إنتاجًا وقراءةً؟

إننا ننتمي إلى أمة يبدأ دينها بالدعوة إلى القراءة ﴿اقْرَأْ﴾ فإلى أيّ حدٍّ تأخذ القراءة حيّزها في برامج حياتنا وأوقاتنا؟. الكتاب مصدر من مصادر الوعي والثقافة، فينبغي أن يهتم كل واحد بعلاقته مع الكتاب، وأن نربي

(١) http: //www.internetworldstats.com /stats5.htm

عوائلنا وأبناءنا وبناتنا على الارتباط بالكتاب، في البلاد الغربية أصبحت المكتبة جزءًا من لوازم البيت والعائلة، لذلك فإن أي تخطيط أو تصميم لترتيب المنزل وتأثيثه لا بد وأن يحتوي على رفوف للكتب، ولأن طريقة التصميم والتأثيث عندنا مستوردة منهم، فإن في غالب بيوتنا الآن مكانًا للكتب، لكنها قد تشغل بأشياء أخرى، لضعف التوجه والاهتمام لدينا بالقراءة والثقافة.

الحركة الثقافية

اهتمام أبناء المجتمع بالثقافة يتأثر بمستوى النشاط والحركة الثقافية العامة في البلاد، فإذا كانت هناك فاعلية ونشاط ثقافي، فإنها تخلق أجواء دافعة ومشجعة باتجاه الوعي والثقافة، لدى أكبر عدد وأوسع رقعة اجتماعية.

ومن مفردات تنشيط الحركة الثقافية في المجتمع ما يلي:

١. التشجيع والتوجيه نحو الثقافة من قبل وسائل الإعلام، وعلماء الدين، وخطباء المنبر، ومعلمي المدارس.. ومن قبل كل ذي تأثير ونفوذ.
٢. توفير المجال وإتاحة الفرصة أكثر للأنشطة الثقافية المختلفة، من قبل الأجهزة الرسمية المعنية كوزارة الثقافة والإعلام ورعاية الشباب ووزارة التربية والتعليم، ومن قبل الجهات الأهلية المتصدية، ففي كل منطقة يوجد نادٍ رياضي، ومسجّل على لوحته أنه رياضي

اجتماعي ثقافي، وللنشاط الثقافي في الأندية مستحقات ومخصصات من قبل رعاية الشباب، لكن المطلوب من إدارات الأندية أن تولي الجانب الثقافي اهتمامًا أكبر. كما أن المساجد والحسينيات يمكنها أن تلعب دورًا أكبر في تنشيط الحركة الثقافية، ضمن الضوابط والقوانين الشرعية.

٣. تسهيل حركة الكتاب تأليفًا وطباعةً ونشرًا. ووجود المكتبات العامة للمطالعة والبحث يعتبر معلمًا من معالم الحركة الثقافية في المجتمع، فينبغي الاهتمام بالمكتبات العامة، وإلفات النظر إليها.

إمكانات ومقومات

تتوفر في مجتمعنا إمكانات ومقومات عديدة، تساعد على انطلاق حركة ثقافية فاعلة.

أولا: تقدم المستوى التعليمي، فقد انخفضت نسبة الأمية في بلادنا والحمد للَّه إلى أدنى حد، وكل أبنائنا وبناتنا متعلمون.

ثانيًا: توفر وسائل الاتصالات والمعلومات التقنية والتكنولوجية، من تلفزيون، وأجهزة التقاط فضائي، وكمبيوتر، وفاكس، وإنترنت..

ثالثًا: الماضي العلمي والثقافي العريق لمجتمعنا، فمن قديم الزمان كانت لدينا حوزات علمية، وعلماء كبار، وأدباء مشهورون، وحركة علمية أدبية تتحدث عنها المصادر التاريخية بإشادة وإكبار.

رابعًا: وجود الكفاءات والقدرات العلمية والأدبية في مختلف المجالات، فعندنا الآن جيل جديد من طلاب العلوم الدينية، وفيهم من نال مرتبة عالية، وقطع شوطًا علميًّا جيدًا، وعندنا خطباء يُفخَر بمستوى خطابتهم، وأدباء بارعون، وكفاءات متخصصة في أكثر من حقل علمي كالطب والهندسة...

خامسًا: توفر القدرة المالية، فالحركة الثقافية تحتاج إلى تمويل وإنفاق. وعندنا أثرياء متمكنون، ورجال أعمال مقتدرون، ونرى أن هناك إقبالًا على أعمال الخير في بلادنا كبناء المساجد والحسينيات، ومساعدة الفقراء والضعفاء، وما نحتاجه هو التوجيه إلى أهمية الإنفاق والعطاء في الأنشطة الثقافية، وأن ذلك مورد لثواب اللَّه تعالى ورضاه، وسبب لصلاح المجتمع وتقدمه.

كما أن الحقوق الشرعية من أخماس وزكوات، والأوقاف الخيرية والدينية، وهي متوفرة في المجتمع، ينبغي أن تقوم بدور أكبر في دعم النشاط الثقافي، وتفعيل حركة الوعي والمعرفة.

هذه المقومات يمكنها أن تشكل أرضية مناسبة لنهضة ثقافية واعية، ترفع مستوى المجتمع، وتطور حياته في مختلف المجالات، وتمكنه في الإسهام في بناء الوطن ورفعة شأنه.

التنمية الثقافية والإنفاق الأهلي

كان اختيار تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣م لموضوع بناء مجتمع المعرفة موفقًا جدًا.

ذلك أن المعرفة اكتسابًا وإنتاجًا وتوظيفًا قد غدت في مطلع القرن الحادي والعشرين هي الوسيلة الكفيلة بتحقيق التنمية الإنسانية في جميع ميادينها، فهي غالبًا ما ترسم الحدود بين القدرة والعجز، بين المنعة والوهن، بين الصحة والمرض، وبين الثروة والفقر.

وقد أشار التقرير إلى أن شحّ المعرفة وركود تطورها يحكمان على البلدان التي تعانيهما بضعف القدرة الإنتاجية، وتضاؤل فرص التنمية، حتى إن فجوة المعرفة أصبحت تُعدُّ في نظر مؤسسة اقتصادية دولية كالبنك الدولي، المحدد الرئيس لمقدرات الدول في العالم الآن.

إن التخلف الشديد لمجتمعاتنا العربية والإسلامية، في مجال المعرفة والثقافة، هو الذي يكرّس تخلفها في سائر المجالات كما هو ناتج له.

وقد كانت إشارة البدء بانطلاق حضارة الإسلام هي الأمر بطلب المعرفة (اقرأ). وبقدر الاستجابة لهذا الأمر كان الكسب والإنجاز الحضاري. وحين تقلّص الاهتمام بالمعرفة وانخفض مستوى الإجابة للأمر (اقرأ) تراجعت الحضارة، وضاعت المكاسب، وتخلفت الأمة، وسبقتها سائر الأمم التي سلكت طريق المعرفة والعلم.

وتلك هي سنة اللَّه التي تقضي بتفوق أهل العلم والمعرفة على الجاهلين ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[سورة الزمر، الآية: ٩]، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا﴾[سورة فاطر، الآية: ٤٣].

ولا يمكن ردم الهوة العميقة، ولا قطع المسافة الشاسعة، التي تفصل بيننا وبين المجتمعات المتقدمة، إلّا ببناء مجتمع المعرفة، وامتلاك قدرة العلم، وإصلاح خلل الثقافة.

إن شواهد العجز والضعف في واقعنا الثقافي أكثر من أن تعد وتحصى، وعلى مختلف الصُّعد، وقد أشار التقرير المذكور إلى بعض تلك الشواهد: إذ ينخفض عدد الصحف في البلدان العربية إلى أقل من ٥٣ لكل ألف شخص، مقارنة مع ٢٨٥ صحيفة لكل ألف شخص في الدول المتقدمة.

ويوجد أقل من ١٨ حاسوب لكل ألف شخص في المنطقة العربية، مقارنة مع المتوسط العالمي هو ٧٨,٣ حاسوب لكل ألف شخص.

أما إنتاج الكتب في البلدان العربية فلم يتجاوز ١,١٪ من الإنتاج

العالمي رغم أن العرب يشكلون نحو ٥٪ من سكان العالم.

وعلى الرغم من وجود ٢٨٤ مليون عربي يتحدثون اللغة العربية في ٢٢ دولة، يتراوح العدد المعتاد لنشر أي رواية أو مجموعة قصص قصيرة ما بين ١٠٠٠ و٣٠٠٠ نسخة، ويعتبر الكتاب الذي يوزع منه ٥٠٠٠ نسخة ناجحًا نجاحًا باهرا.

وبينما يصل عدد المنشورات العلمية في فرنسا إلى ٨٤٠ بحثًا لكل مليون فرد، وفي هولندا إلى ١٢٥٢، وفي سويسرا إلى ١٨٧٨ فإنه في البلدان العربية لم يتعد٢٦ بحثًا لكل مليون فرد عام ١٩٩٥م.

ويعاني البحث العلمي في البلدان العربية من انخفاض الإنفاق عليه، إذ إن الإنفاق الرسمي لا يتجاوز ٠,٢٪ من الناتج القومي، وتتفاوت هذه النسبة من بلد لآخر ويستهلك معظمها في تغطية رواتب العاملين. وللمقارنة نجد أن نسب الإنفاق على البحث والتطوير في البلدان المتقدمة تتراوح بين ٢,٥٪ إلى ٥٪.

وتعتبر الترجمة من القنوات الهامة لنشر المعرفة والتواصل مع العالم، إلّا أن حركة الترجمة في البلدان العربية ما زالت تتسم بالركود والفوضى، فمتوسط الكتب المترجمة لكل مليون من السكان في الوطن العربي في هذه السنوات الخمس هو ٤,٤ كتابًا، أي أقل من كتاب واحد في السنة لكل مليون من السكان، بينما بلغ ٥١٩ كتابًا في المجر، و٩٢٠ كتابًا في أسبانيا لكل مليون.

ورغم ازدياد عدد الكتب المترجمة في العالم العربي من حوالي ١٧٥ عنوانًا في السنة خلال الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥م إلى ما يقرب من ٣٣٠ كتابًا وهو خمس ما تترجمه اليونان مثلًا.

ويقدر الإجمالي التراكمي للكتب المترجمة منذ عصر المأمون حتى الآن بحوالي ١٠٠,٠٠٠ كتابٍ وهو يوازي ما تترجمه أسبانيا في عام واحد.

مسؤولية النهوض

تتحمل الحكومات العربية الجزء الأكبر والأساس من مسؤولية التردي والضعف في واقع المعرفة والثقافة في البلاد العربية، لشّح إنفاقها على هذا الجانب، ولسوء الإدارة والتخطيط، ولوضعها الحواجز والعراقيل أمام حرية الفكر وحركة المعرفة.

وكنموذج للتجاهل والإهمال الرسمي لشأن المعرفة والثقافة، نشير إلى ما قاله الدكتور شاكر مصطفى المفكر والمؤرخ السوري، الذي كان يرأس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية، قال: «إن المنظمة رأت أن تضع خطة للثقافة العربية عام ١٩٨٢م لترسم السياسة الثقافية المستقبلية، واختارت سبعة عشر مثقفًا متخصصًا من سبعة عشر قطرًا عربيًا لوضع هذه الخطة، التي استمر العمل فيها لمدة أربع سنوات، أُنفق خلالها مليونا دولار، وقد عقدنا ٢٩ مؤتمرًا، ضم كل مؤتمر ٢٥ متخصصًا في كل فروع المعرفة الإنسانية، من الموسيقى إلى الصحافة، ومن الدين إلى العلم. ولخصت بنفسي كل هذا وجمعته في خمسة مجلدات مركونة على الرفّوف إلى اليوم!! وقد عانيت المرّ في هذا العمل الضخم ليس

بسبب الجهد الذي بذلته، ولكن بسبب تعنّت الحكومات العربية، فلم تمدنا بالمعلومات أو الأرقام الخاصة، وكنت أضطر إلى إرسال مبعوث شخصي إلى هذه الحكومات فيفشل في مهمته، فأضطر إلى السفر بنفسي في كثير من الأحيان، وأواجه بكمّ من الإجراءات والعقبات البيروقراطية الكفيلة بنسف مشروعنا من أساسه، ثم وافق وزراء الثقافة العرب بالإجماع على هذه الخطة رغم أنهم لم يقرأوها، وبالتالي لم يقرأها مسؤول عربي واحد إلى الآن»[1].

لكن المسؤولية لا تنحصر في الحكومات، فإن النهوض بمستوى الثقافة والمعرفة يتطلب فاعلية أهلية وحركة اجتماعية، وخاصة من قبل العلماء والمثقفين، ومن جهة رجال الأعمال والثروة.

ففي البلدان المتقدمة تساهم القطاعات الإنتاجية والخدمية، ويقوم الأغنياء ومؤسسات المجتمع المدني بنحو ٥٠٪ من الإنفاق على جهود البحث والتطوير العلمي والمعرفي، بينما لا تتعدى هذه النسبة ٣٪ من المخصصات الضئيلة للبحث والتطوير في البلدان العربية.

في الأول من يناير ١٩٩٧م نشرت صحيفة (كريستيان سيانس مونيتور) الأمريكية: أن أمريكيًا لم يرغب في إعلان اسمه تبرع بمبلغ ٣٥ مليون دولار للدفاع عن التمدن والنزاهة والتقاليد النبيلة في بلاده، وأرسل التبرع إلى (معهد المجتمع المدني) الذي أقيم في ولاية (ماساشوسيتس) ويكرس جهوده لمقاومة الانحرافات والانهيارات السلوكية والأخلاقية الحاصلة في

(١) جريدة الحياة. تصدر من لندن، العدد ١١٦٥٦، بتاريخ ١٨ يناير ١٩٩٥م.

المجتمع الأمريكي، وقد وجد الرجل أن رسالة المعهد تحقق له حلمًا تمناه لشعبه فوضع تحت تصرفه ذلك المبلغ الكبير[١].

وثمة نموذج آخر عرضه الدكتور محمد عبدالسلام، عالم الفيزياء الباكستاني الذي كان أول مسلم حصل على جائزة نوبل عام ١٩٧٩م وضمنه كتابه (أحلام وحقائق) فقد ظلّ الرجل يحلم بإقامة مركز دولي للفيزياء النظرية، يستفيد منه ويتدرب فيه علماء العالم الثالث، ولم يجد مكانًا يستجيب لحلمه سوى مدينة (تريستا) الإيطالية، وقد أدهشه أن مجلس المدينة خصص مبلغ ٤٠ مليون دولار لصالح المشروع، وأن أثرياءها بادروا إلى تشجيعه وتقديم الأموال التي احتاجها.

وروى الدكتور عبدالسلام قصة تبرع بمبلغ ٧٠ مليون دولار قدمته (مؤسسة كيك) التي أنشأتها عائلة أمريكية مغمورة تعمل بالنفط إلى معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا، لكي يتمكن من بناء أكبر تلسكوب على وجه الأرض، يبلغ قطره عشرة أمتار. بعد ذلك تساءل قائلًا: أين الأثرياء في بلادنا؟ ولماذا يتقاعسون عن القيام بتلك المهام النبيلة التي يقبل عليها الأثرياء في العديد من أنحاء العالم؟[٢].

كانت هذه الروح متوفرة في أوساط أثرياء الأمة في أزمنة سابقة، وبها استطاعت الأمة تحقيق ما يتحدث عنه التاريخ من إنجازاتها العلمية والحضارية والإنسانية.

(١) فهمي هويدي. أثرياء هذا الزمان الأبعدون، جريدة الشرق القطرية، ٧ يناير ١٩٩٧م.
(٢) المصدر نفسه.

فكانت سنّة (الوقف الخيري) جارية في مختلف مجتمعات الأمة، ومنها أقيمت المدارس والمستشفيات والمكتبات، ودور الضيافة للمسافرين، وعبرها كان يتم الإنفاق على النشاط العلمي والثقافي.

جاء في ترجمة الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (٣٥٥ ـ ٤٣٦هـ) أنه وقف قرية زراعية كاملة تصرف مواردها على قراطيس الفقهاء والتلاميذ[١].

وفي عهد قريب تبرعت في مصر فاطمة بنت الخديوي إسماعيل لمشروع إنشاء الجامعة المصرية بثلاثة آلاف وثلاث مئة فدّان يخصص ريعها للجامعة، فضلًا عن قطعة أرض مساحتها ستة أفدنة لإقامة مباني الجامعة، المقر الحالي لجامعة القاهرة، وقدمت فوق هذا وذاك ١٨ ألف جنيه ذهبية لميزانية الجامعة في سنة ١٩١٣م.

كما وقف الأمير يوسف كمال على الجامعة ١٢٥ فدانًا، وأنشأ من حرّ ماله كلية الفنون الجميلة في أوائل القرن العشرين، وأوفد أوائل خريجيها على نفقته الخاصة في بعثات إلى إيطاليا وفرنسا، كما أوقف مصطفى كامل الغمراوي المزارع الثري من بني سويف ٥٠٠ فدّانٍ على الجامعة المصرية[٢].

الإنفاق على الشأن العام

لا يمكن إنكار وجود مبادرات طيبة وجهود خيّرة في مجتمعاتنا من

(١) ديوان الشريف المرتضى، المقدمة في ترجمته ص٥٠-٥١.
(٢) فهمي هويدي. الأثرياء الحاضرون الغائبون، مجلة الخيرية، العدد ٩١، جمادى الآخرة ١٤١٨هـ.

قبل بعض المحسنين الباذلين من أموالهم وثرواتهم في سبيل اللَّه ولخدمة المصالح العامة.

لكن هذه المبادرات لا تزال محدودة قليلة، لا تتناسب مع حجم الثروات، وسعة طبقة الأثرياء، فقد تحدثت مجلة (**Arabian Business**) أخيرًا عن خمسين ثريًا عربيًا يمتلكون ٤٠٤ مليار دولار، وقالت إنها لم تتعرض للملياردية العرب المغمورين وإلّا لم تكف ٥٠ صفحة لباقي الأثرياء الذين لا يظهرون ثرواتهم خوفًا من الحسد والمساءلة[١].

كما أن هذه المبادرات لا تشكل الحد الأدنى من الاستجابة للاحتياجات والتحديات الكبيرة التي تواجهها الأمة في هذا العصر، والتي تنعكس آثارها على جميع شرائح الأمة بما فيهم الأثرياء، وتؤثر على مختلف أوضاع الأمة وفي طليعتها الوضع الاقتصادي.

مما يعني أن الإنفاق على الشأن العام له مردود إيجابي على الأثرياء أنفسهم، وفي مجال اهتمامهم الاقتصادي، كما أن لشّح الإنفاق في خدمة الشأن العام نتائج سلبية ليسوا بعيدين عن آثارها.

وغريب جدًّا أن يتدنى مستوى الإنفاق على الشأن العام في ساحة أمة يفرض دينها الإنفاق كواجب ملزم، وركن أساس في الانتماء للدين، حيث تقرن آيات القرآن الكريم دائمًا بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وتكرر ذلك في ٣٢ آية كقوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾

(١) شبكة المعلومات العربية (محيط)، نقلًا عن آرابيان بيزنيس، العنوان على الشبكة، www.moheet.com

[سورة الحج، الآية: ٧٨] وبين الإيمان والإنفاق في سبيل اللَّه، كقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[سورة الحديد، الآية: ٧].

لقد أصبح الإنفاق على الشأن العام ظاهرة عامة في المجتمعات الأخرى، بينما لا يزال في مجتمعاتنا ضمن مستوى المبادرات الفردية المحدودة.

ففي مقال للصحفية (مها عبدالفتاح) في جريدة (أخبار اليوم) المصرية بتاريخ ٥/ ٨/ ١٩٩٧م كتبته من واشنطن تحت عنوان (أروع ما في أمريكا أوقاف أغنيائها وروح العطاء) أشارت فيه إلى أنه لا يكاد يوجد ثري في الولايات المتحدة إلّا ويخصص جزءًا من ثروته للمجتمع، وتحدثت عن نموذج لرجل من الأغنياء الأمريكيين أنشأ مؤسستين خيريتين، وأنفق عليهما في صمت مئات الملايين من الدولارات خلال السنوات العشر الماضية، ولم يعرف إلّا حين باع بعض شركاته مؤخرًا، ووهب لأعمال الخير مليار دولار، في حين لم يستبق لنفسه وأسرته سوى خمسة ملايين دولار فقط.

وجاء في تقرير آخر أن تبرعات الأمريكيين للجمعيات الخيرية عام ٢٠٠٣م وصلت إلى ٢٤٥ بليون دولار، ويمثل ٢,٢٪ من الدخل الوطني[١]، كما أن معدل التبرع سنويًّا هو ٥٠٠ دولار لكل أمريكي.

وقد جاء في تعريف (معهد كارينجي للسلام الدولي) أنه مؤسسة أبحاث سياسية مرموقة في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية،

(١) جريدة الوسط. ملحق اسبوعي لجريدة الحياة، العدد ٦٤٩، بتاريخ ٥ يوليو ٢٠٠٤م.

تأسس سنة ١٩١٠م على يد (أندرو كارينجي)، أحد أهم رواد الصناعة في تلك الحقبة، والذي جنى ثروة كبيرة في صناعة الفولاذ، ثم قرر تكريسها لتحقيق الأهداف التي شعر بأن المنظمات الخاصة لا يسعها أن تعهد بها كليًّا إلى الحكومة، وأحدها قضية نشر السلام في العالم.

الاهتمام بالشأن الثقافي

غالبًا ما يتجه المحسنون في بلادنا للإنفاق على ما يخدم القضايا الدينية المباشرة، كبناء المساجد، والحسينيات، والحج والعمرة والزيارة، وتلاوة القرآن، وما شاكل من الأعمال الدينية.

وبالدرجة الثانية يأتي الاهتمام في الإنفاق على القضايا الإنسانية، كمساعدة الفقراء، ورعاية الأيتام، وعلاج المرضى.

وفي المرتبة الثالثة يجيء دور الإنفاق على الشأن الثقافي المعرفي، كبناء المدارس والجامعات، وإقامة المراكز العلمية، وإنشاء المكتبات، ونشر البحوث والمجلات والكتب، وتنمية الكفاءات والقدرات.

وإذا كان مستوى العطاء الأهلي محدودًا، وكان الشأن الثقافي في المرتبة المتأخرة منه، فإن ذلك يعني استمرار واقع التخلف وتكريسه على هذا الصعيد. ومع سرعة تقدم المجتمعات الأخرى معرفيًّا وتكنولوجيًّا فكيف سيكون مستقبل هذه الأمة؟

فلا بد من استنهاض الهمم، وتوجيه مبادرات العطاء نحو الشأن الثقافي، فالمعرفة ليست مسألة هامشية في نظر الإسلام، بل هي من الدين في

الصميم، والإنفاق على نشر المعارف والعلوم لا يقلّ أهمية وفضلًا عند اللَّه تعالى من الإنفاق على بناء المساجد وقضايا العبادة، وبالمعرفة تتقوى حالة التدين.

كما أن رفع مستوى المعرفة في المجتمع هو أفضل سبيل لمواجهة حالات الفقر والعوز الاقتصادي.

البابطين نموذج ريادي

إن مما يحفّز على تشجيع الاهتمام بالإنفاق على الشأن المعرفي والتنمية الثقافية، إشهار المبادرات الطيبة بهذا الاتجاه، وتقدير المبادرين الذين يتبنون رعاية وتمويل الأنشطة المعرفية الثقافية.

وهم في الواقع يستحقون كل تقدير واحترام، لأن اهتمامهم بهذا المجال يدل على مستوى متقدم من الوعي، وشعور عميق بالمسؤولية.

ومن أولئك المبادرين الروّاد في منطقتنا الخليجية الأستاذ عبدالعزيز بن سعود البابطين حفظه اللَّه. وهو من رجال الأعمال المعروفين في الكويت (ولد سنة ١٩٣٦م) وله نشاط تجاري وصناعي بارز.

وهو أديب شاعر أصدر ديوانه الأول (بوح البوادي) عام ١٩٩٥م وديوانه الثاني (مسافر في القفار) عام ٢٠٠٤م.

ولاهتمامه المعرفي انضم إلى عضوية عدة مؤسسات علمية وثقافية، منها: الهيئة التأسيسية للجنة الوطنية لدعم التعليم، وإدارة الصندوق الوقفي للثقافة والفكر التابع للأمانة العامة للأوقاف في دولة الكويت،

ورابطة الأدباء في الكويت، ومجلس أمناء المجمع الثقافي العربي في بيروت، وجمعية فاس سايس الثقافية في المغرب، ومجلس أمناء (مؤسسة الفكر العربي)، وهو عضو مراسل لمجمع اللغة العربية في دمشق. ولا شك أن عضويته في هذه المؤسسات تعني تواصله الدائم مع هموم المعرفة والثقافة، وبذله للجهد والوقت والمال بشكل مستمر في خدمتها.

وقد أنشأ جائزة للإبداع الشعري عام ١٩٨٩م ومكتبها الرئيس في القاهرة وافتتحت لها مكاتب إقليمية في كل من تونس وعمان والكويت. كما أنشأ جائزة سنوية مخصصة لأحفاد الإمام البخاري قيمتها (١٠٠) ألف دولار، لترميم الجسور الثقافية الأصيلة بين الأمة العربية والدول الإسلامية المستقلة حديثًا في آسيا.

وأنشأ بعثة للدراسات العليا تُعطي للشعوب الإسلامية في جمهوريات آسيا الوسطى مئة منحة سنويًا للدراسة في جامعة الأزهر بالقاهرة، علاوة على خمس منح سنوية للمغرب، وأخرى للنيجر، وأخرى لأوغندا ومالي، ومئة منحة سنوية لأبناء الشعب العراقي بالتنسيق مع سماحة السيد محمد باقر الحكيم قبل شهادته ﵀. وخمسين منحة سنوية للدراسات العليا لأبناء شهداء انتفاضة الأقصى.

وأسس مكتبة مركزية للشعر العربي في الكويت، ومكتبة في حرم كلية الآداب بجامعة القدس تقدم خدماتها لأبناء فلسطين. وأنشأ جائزة للشعر العربي في فلسطين موجهة للشباب الفلسطيني ممن تقل أعمارهم عن ٣٥ عامًا.

وأسس مركزًا للترجمة في بيروت عام ٢٠٠٤م ليقوم سنويًّا بترجمة العشرات من الكتب العلمية وغيرها من اللغات الأجنبية الحيّة إلى اللغة العربية.

كما أنشأ أكثر من عشر مدارس وكليات في كل من مصر عام ١٩٩٠م ولبنان عام ١٩٩٦م والمغرب والعراق عام ١٩٨٨م، وجمهورية قرغيزستان، وجمهورية مالي، وكازخستان، وأذربيجان، والجزائر، والهند.

إضافة إلى إسهاماته وخدماته في المجال الإنساني كإنشاء المستشفيات والمراكز الطبية وبناء المساجد.

الوقف للإنماء الثقافي

لإيجاد روافد دعم ثابتة للإنماء الثقافي، ولتكريس الدور الأهلي في خدمة قضايا المعرفة، لا بد من تشجيع قيام مشاريع وقفية مخصصة للتنمية الثقافية، فكما لدينا أوقاف للمساجد والحسينيات ولتخليد ذكريات أئمة الدين، وكذلك بعض الأوقاف للفقراء والمساكين والأيتام، نحتاج إلى أوقاف للابتعاث للدراسات العليا، وللبحث والتطوير، وللتأليف وطباعة الكتب، وللإعلام والقنوات الفضائية الهادفة.

وقبل ذلك يجب التفكير في الاستفادة من الأوقاف الموجودة فعلًا لصالح التنمية الثقافية.

فالأوقاف التي للمساجد ألا يمكن الاستفادة منها لابتعاث أئمة المساجد لتطوير كفاءاتهم؟ ولإقامة الدروس ودورات التعليم والتثقيف

في المساجد؟ ولتمويل أنشطة معرفية مرتبطة بالمسجد كموقع على الإنترنت ومطبوعات منتظمة؟

وكذلك الأوقاف على الحسينيات ألا يمكن الاستفادة منها في قيام أنشطة معرفية منبثقة عن الحسينية متجهة إلى أهدافها؟

وحينما يكون عندنا وقف باسم إمام من الأئمة ﷺ ألا يصحّ لنا أن نصرف جزءًا من ريعه لتمويل دراسات علمية عن حياة ذلك الإمام؟ أو إنشاء مؤسسة ثقافية للتعريف بسيرته وبث معارفه وعلومه؟

كمٌّ هائل من الأوقاف باسم الإمام الحسين ﷺ لكنه لم يتأسس لحد الآن معهد أو مركز لدراسة حياته وثورته من تلك الأوقاف، وقد بادر الباحث المحقق الشيخ محمد صادق الكرباسي لتأسيس مركز للدراسات الحسينية في لندن، ووضع خطة لإصدار (دائرة المعارف الحسينية) من مئات المجلدات، وقد طبع منها بالفعل حوالي أربعين مجلدًا، لكن هذا المركز لا يتوفر له أدنى الدعم المطلوب لتسيير عمله!!

لماذا تنحصر استفادتنا من هذه الأوقاف ضمن الأساليب والتقاليد المألوفة فقط كبناء المساجد والحسينيات، وإقامة المجالس في المناسبات وتقديم الطعام بعنوانها؟

وإذا كانت هناك تحفظات حول مدى انطباق جهة الوقفية على الأنشطة المعرفية والثقافية، فإن مراجع الدين والفقهاء الفضلاء يمكنهم إفادتنا في معالجة هذه الإشكالية، بتبيين مدى اتساع جهة الوقفية، أو الإذن في صرف

ما يزيد عن حاجة الجهة المخصصة للوقف، في دعم المشاريع الأخرى.

لقد أصاب تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣م فيما خلص إليه من أن المعرفة تكاد تكون الفريضة الغائبة في أمة العرب الآن.

التغيير الاجتماعي وعنصر الزمن

التغيير الاجتماعي مهمة من أصعب المهمات، فإذا كان المجتمع يسير في اتجاهٍ معيّن، أو تسوده أفكارٌ معينة، فإن تغيير هذه الأفكار وهذا المسلك الاجتماعي ليس أمرًا سهلًا، وذلك لسببين:

السبب الأول: مرور الزمن يسبِّب تجذّرًا في الأفكار والعادات والتقاليد والتوجهات، وتغيير الشيء المتجذِّر ليس أمرًا سهلًا. ومثله كمن يُريد أن يقتطع نبتةً من الأرض ذات جذورٍ عميقة في الأرض، فذلك يحتاج إلى عضلات قوية.

السبب الثاني: وجود قوى تستفيد وتتمصلح من الواقع السائد في المجتمع، وتخشى إذا ما تغير هذا الواقع أن تخسر مصالحها. ولذلك فإن هذه القوى المستفيدة من الواقع القائم في المجتمع ستُقاوم وتُخالف أيّ حركة تغيير في المجتمع.

الأنبياء والرسل يأتون بأمرٍ من اللَّه تعالى لتغيير واقع المجتمعات:

الكافرة، المشركة، المنحرفة، أو تلك التي تعيش فسادًا أو ظلمًا. ومن الطبيعي ألّا يتحقق للنبيّ هدفه بسرعة، وقد لا يتحقق له ذلك الهدف طوال حياته. وقد بعث اللَّه تعالى ١٢٤ ألف نبيّ، ولكن كم منهم استطاع أن يُحقق ويُنجز نجاح دعوته في حياته؟

والقرآن الكريم يُحدثنا عن نبي اللَّه نوح ﷺ فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾[سورة العنكبوت، الآية: ١٤]، ومع طول المدة يقرّر القرآن الكريم في نهاية دعوة هذا النبي العظيم ما قاله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[سورة هود، الآية: ٤٠]. وكذلك نبي اللَّه موسى ﷺ فبعد أن تغلّب على فرعون، وأنقذ اللَّه بني إسرائيل من فرعون، تأذى ﷺ من قومه أذى كبيرًا؛ وهكذا حال جميع الأنبياء.

ونبينا الأعظم محمد ﷺ عاش بعد البعثة ثلاث عشرة سنة في مكة يكدح ويُعاني الآلام من المشركين، مع أنهم كانوا يُلقبونه بالصادق الأمين، وبعد رحيل عمّه أبي طالب ﷺ لم يكن له مجيرٌ في مكة، مع طول المدة التي عاشها رسول اللَّه ﷺ بينهم، فمضى إلى الطائف حتى يجد له من يحميه من زعمائها وهناك أيضًا لم يجد له أحد يحميه، والتاريخ ينقل أن رسول اللَّه ﷺ خرج من الطائف وجلس تحت ظل شجرة وتوجه إلى اللَّه تعالى بقوله: إلهي أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس.

وهذه حال طبيعية يمرّ بها الدعاة إلى التغيير من الواقع الاجتماعي، ولذلك خاطب اللَّه نبيه محمدًا ﷺ بقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [سورة الأحقاف، الآية: ٣٥].

قال الراغب الأصفهاني: العزم هو عقد القلب على تحقيق المطلوب. وأولو العزم من الرسول خمسة: نبي اللَّه نوح ﷺ، نبي اللَّه إبراهيم ﷺ، نبي اللَّه موسى ﷺ، نبي اللَّه عيسى ﷺ، ونبينا الأعظم محمد ﷺ. فاللَّه تعالى يأمر نبيه بالصبر كما صبر أولو العزم من قبله. ثم يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ فالتغيير الاجتماعي يحتاج إلى نفسٍ طويل.

هناك ثلاثة متطلبات يحتاجها من يسعى للتغيير الاجتماعي:

أولًا: الرؤية الواضحة، وهذا يتعلق بالجانب الفكري لمن يريد التغيير إذ ينبغي يكون الهدف واضحًا وجليًّا.

ثانيًا: الإرادة القوية، وهي تتعلق بالجانب النفسي لمن يريد التغيير.

ثالثًا: الجهد الطويل الدؤوب، ففي كثيرٍ من الأعمال والمهام يكون للزمن دورٌ أساس في إنجازها. بعكس ما هو الحال في مهامٍ أخرى حيث يكون الجهد هو العامل الأساس في إنجازها دون الزمن. ومثله الأمراض التي تُصيب الإنسان، فبعضها تزول بأخذ الدواء الموصوف لها وفي مدة قصيرة، وبعضها تحتاج إلى زمن طويل، كالكسور التي تُصيب العظام.

ومثالٌ آخر يتعلق بمسألة الإنجاب، فهي عملية تحتاج إلى زمن ينبغي أن يمر به الإنسان بأن يكون في بطن أمه تسعة أشهر وبعدها تحين فترة الولادة، وليس هناك طريقة لتسريع الولادة إلّا في بعض الحالات غير الطبيعية التي يكون فيها الإنجاب قبل هذه المدة. وكذلك الحال في تنشئة

الأولاد وتربيتهم، فهذه المسألة بطبيعتها تحتاج إلى زمن بغض النظر عن الجهد المبذول فيها.

فالتغيير الاجتماعي كذلك يحتاج إلى نفسٍ طويل، وتجد أن بعض الأحيان يتحمّس للتغيير ولكن مع مرور زمنٍ قصير ينتابه العجب: لماذا لا تسود هذه الفكرة أو تلك في المجتمع؟ ولماذا لا يتغير الناس بسرعة؟ وهذه حال طبيعية؛ لأن المسألة تحتاج إلى زمن! ويتفاوت الزمن بحسب الظروف التي يعيشها المجتمع، والجهد المبذول في موضوع التغيير، فإذا كان الجهد أكبر فقد يختصر الزمن بمقدارٍ ما. ولذلك نرى الأنبياء ﷺ كيف كانوا يتحمّلون ويصبرون.

من ناحية أخرى، فإن مسألة التغيير لا ترتبط بأن الرأي الذي تحمله صواب أم خطأ، وإنما طبيعة التغيير الاجتماعي تحتاج إلى زمن، وإلّا فلا شيء أصدق مما كان يدعو له الأنبياء.

وأيضًا واقع الحال الذي عاشه أئمتنا ﷺ حيث عاش أحد عشر إمامًا بين الناس في المرحلة الأولى، واكتنفت حياة الإمام الثاني عشر ظروف الغيبة. وفي المرحلة الأولى التي كانت مدتها ٢٥٠ سنة استطاع الأئمة فيها أن يخلقوا تيارًا ويشقوا طريقًا، ويتركوا تراثًا ورصيدًا للأمة، ولكن بالنتيجة لم يستطع كل إمام منهم أن يُنجز التغيير كاملًا في حياته. وكان بعض أصحاب الأئمة يأتون للإمام منزعجين من الوضع السائد، وكان الإمام يهدئهم ويوعيهم ويُبصّرهم.

وهكذا المصلحون في كل عصر والمجتمعات الأخرى، فالمجتمع

الأوروبي الذي كان يعيش تحت استبداد الكنيسة، وفي العصور المظلمة، لم يتغير حاله ووضعه بين عشيةٍ وضحاها، وإنما احتاج ذلك إلى زمنٍ طويل.

والمهم في الأمر أن يكون هناك عمل، فالصبر لا يعني الركود، وإنما يعني السعي والعمل وترك المجال للزمن حتى يتحقق الهدف والغاية. يقول الرسول الأعظم ﷺ: «علامة الصابر في ثلاث: أولها أن لا يكسل، والثانية أن لا يضجر، وثالثها أن لا يشكو من ربّه عزّ وجل، لأنه إذا كسل فقد ضيّع الحقوق، وإذا ضجر لم يؤدِّ الشكر، وإذا شكا من ربه فقد عصاه»[1].

من الظواهر التي نلاحظها في مجتمعاتنا أن بعض الناس لا يملكون نَفَسًا طويلًا في العمل الاجتماعي، فيعيش فترة حماسة وتوجّه، وبعدها ينسحب؛ لأنه كان يتوقع أنه بمجرد أن يعمل فإن الأمور والأوضاع الاجتماعية ستتغير بسرعة، وإذا تأخرت النتائج يملّ من العمل.

فالمجتمعات لا تتغيّر بما يطلق عليه في المجتمع مصطلح (الطربة) أو مصطلح (ضو ليف)، فالتغيير الاجتماعي يحتاج إلى نَفَس طويل، وما دون ذلك يُعبّر عن ضعف الوعي بمسيرة التغيير في المجتمعات البشرية. فنرى عمر الأنشطة الاجتماعية في المجتمعات الأخرى يُعادل عقودًا أو قرونًا من الزمن. بينما متوسط عمر الأنشطة في مجتمعاتنا في الغالب لا يتجاوز العشر سنوات.

طبيعة الحياة تحتاج إلى صبر، سواءً على المستوى الفردي أو الاجتماعي،

(١) وسائل الشيعة. حديث ٢٠٨٦٢.

وقد ذكرت الصحف عما نُشر في موسوعة جينس للأرقام القياسية إذ تحدثت هذه الموسوعة سنة ٢٠٠٣م عن امرأة في الهند بأنها أكثر إنسان في العالم كتبت رسائل حول الشأن العام حيث كتبت في سنة واحدة ٣٣٤ رسالة، وسجلت الموسوعة في عام ٢٠٠٢م أن زوجها كتب في حياته ٨٠٠٠ رسالة حول الشأن العام، فواضحٌ في مثل هذين النموذجين النَّفَس الطويل الذي تمتلكه هذه المرأة وزوجها، بينما في مجتمعنا العديد من المشاكل والقضايا العامة. ولكن الطابع العام لدى الناس لا يتعدى التذمّر والانزعاج، وقد تجد من يتحمس فيكتب حول مشكلة ما ولكنه يفتقد للمتابعة وطول النفس.

فينبغي للناس الذين يريدون التغيير في مختلف الجوانب الاجتماعية أن تكون هذه الحقيقة واضحة أمامهم وأن يتحلّوا بنفسٍ طويل، وأن يصبروا على ضعف استجابة الظروف لهم، وأن يبذلوا المزيد من الجهد، والتوفيق بيد اللَّه تعالى.

التيارات الاجتماعية والتنافس الإيجابي

التنافس حالة إيجابية لدى الإنسان، فهي التي تدفعه باتجاه تفجير طاقاته وقدراته، كما أنها تبعث النشاط والتطور في المجتمع حيث تتحرك قواه نحو التقدم، وتتسابق على إحراز التفوق.

التنافس لغة: تفاعل من نَفِسَ، و«تنافَسَ القوم في كذا: تسابقوا فيه وتباروا دون أن يُلحق بعضهم الضرر ببعض... والتنافُس: نزعة فطرية تدعو إلى بذل الجهد في سبيل التشبُّه بالعظماء واللُحوق بهم»[1].

وهي مشتقّة من: نَفِسَ عليه إذا شح به عليه. تقول: نَفِسَ بالمال على فلان: شَحَّ به عليه. وقد تكون مشتقّة من النِّفَاسة، وهي الشيء الغالي القيمة والثمن، بمعنى التسابق لكسب الفضل قبل الغير.

والتنافس حالة يعيشها الإنسان الفرد فيما بينه وبقية أفراد محيطه، كما هي حالة تعيشها الجماعات والتيارات الاجتماعية.

(١) المعجم الوسيط، مادة: نفس.

ففي كل مجتمع بشري تتكون وتظهر تيارات وتجمعات، إمّا بناءً على اختلافٍ في المبادئ والأفكار، بحيث تتبنّى كل جماعة فكرًا ومبادئ تختلف فيها مع الجماعة والتيار الآخر، وإما للاختلاف في المواقف والمصالح، بحيث تكون لكل مجموعة مصلحة معينة تسعى لها في مقابل جماعة أخرى تنافسها لكسب هذه المصلحة. وإمّا بناءً على التمايزات العرقية أو القومية أو القبلية، أو التبعية لبعض الزعامات البارزة، وتكون لهذه التيارات فاعلية عند المنعطفات التي يمر بها المجتمع، وخاصة عندما يرتقي وضع المجتمع، لأنَّ تشكُّل التجمعات يعني حالة متقدّمة في واقع المجتمع.

التعدّدية حالة إيجابية

بعض المجتمعات الراكدة قد تنظر إلى نشوء وتشكّل تيارات اجتماعية نظرة سلبية، وتصوّر الأمر وكأنه انقسام يؤدي إلى الفرقة والتشتت، بينما إذا أمعن الإنسان النظر فإنه يرى أنها حال إيجابية، وليست سلبية، لأنها تعتبر نوعًا من التقدّم الاجتماعي.

وأي تقدّم لا بدَّ أن تنتج عنه بعض المضاعفات السلبية، وهنا يأتي دور القوى الواعية في المجتمع في السيطرة على هذه المضاعفات والحدّ منها.

أما المظاهر الإيجابية لتعددية التيارات الاجتماعية فأبرزها ما يلي:

١. إثراء الفكر وتعدد الخيارات

حين تتنوع التوجهات الثقافية للتيارات في المجتمع، ويتحدّث كل تيار عن أفكار وآراء يتبنّاها، فإن ذلك يثري الساحة الفكرية ويدفع الناس إلى

المقارنة بين الآراء والأفكار.

كما أن تعدّد البرامج والمشاريع، واختلاف الطّروحات بين التيارات يضع الناس أمام خيارات متعددة في معالجة قضاياهم، فتكون فرص البحث والتمحيص للآراء والخيارات أوسع وأفضل.

٢. إذكاء حالة التنافس لتطوير المجتمع

كل فئة إذا شعرت بوجود فئة أخرى تحاول أن تكون لها مساحة أوسع من الكسب والتأييد الجماهيري، فإنها ستجدّ وتنشط بكل ما تستطيع من أجل أن تكون الأكثر والأوسع نفوذًا وتأثيرًا، وتشحذ من أجل ذلك ما عندها من طاقات وكفاءات، وهذا لصالح التقدّم الاجتماعي المستفيد من الخدمة التي تقدّمها هذه الجماعة والجماعة الأخرى المنافسة لها.

وهذا بخلاف ما لو كان المجتمع يخضع لجماعة وتيارٍ واحدٍ، حيث لن يكون هناك تنافس، كما أنه سينعكس سلبًا حتى على الجماعة نفسها، لأنها ستتجمّد ولن تسعى لتطوير نفسها.

ولذلك، فإن وجود أكثر من تيار وجماعة تعمل في الشأن الاجتماعي العام يذكي حالة التنافس ويسرّع حركة التطوير في المجتمع.

٣. معالجة نقاط الضعف

لا بدّ أن يكون عند كل طرف أو تيار يعمل في الشأن الاجتماعي، نقاط قوّة، يقابلها نقاط ضعف، وعندما تتعدّد التيارات الفاعلة في المجتمع، ويكون بينها حالة من التنافس، من الطبيعي أن تستغل بعض هذه التيارات

نقاط الضعف عند التيارات الأخرى، فيضطر كل طرف أن يعالج نقاط ضعفه وأن يسدّ الثغرات، وبالتالي سيكون هذا دافعًا للتكامل والتطوّر عند كل جهة من الجهات، أما إذا لم يكن هناك منافسة تبقى الثغرات والسلبيات دون تحفيز لمعالجتها.

٤. استيعاب طاقات المجتمع

كل تيار من التيارات يحاول قدر طاقته أن يستقطب من المجتمع شريحة أكبر من المؤيدين، ومن الطبيعي ألّا يستطيع استيعاب الجميع ضمن تياره، لذلك فإن وجود تيار آخر يحتوي مساحة أخرى من الجمهور، يساعد على أن تكون جميع قوى المجتمع فاعلة في تياراته المختلفة، لا أن تكون بعض القوى فاعلة، بينما تظل الأخرى معطّلة دون أن تجد من يحتضنها ويتبنّاها.

العلاقة بين التيارات الاجتماعية

العلاقة بين التيارات الاجتماعية تختلف في طبيعتها من مجتمعٍ لآخر، ويمكن تحديدها بثلاثة أشكال، هي:

١. علاقة النزاع والخصومة

في بعض الأحيان تكون العلاقة بين التيارات علاقة نزاع وخصومة، بمختلف أشكال المنازعة والخصام، وقد تصل إلى حالة الاحتراب والقتال، كما نرى ذلك في بعض البلدان حيث تتقاتل الجماعات والأحزاب والفصائل.

وفي أحيان أخرى قد لا يصل الأمر إلى مستوى التقاتل، ولكن تكثر

فيما بينها حالة الفتن الاجتماعية، والتشهير الإعلامي، والتصعيد الكلامي، والتشنّج في العلاقة.

٢. علاقة التباعد والقطيعة

وفي هذه الصورة تكون كل جماعة منطوية على نفسها، ومهتمة بشأنها الخاص، وتتبع كل جماعة في علاقتها بالجماعة الأخرى سياسة المتاركة. وهذه الصورة ربما تكون أقل خطرًا من الصورة الأولى، ولكنها في كثير من الأحيان تتطور إلى أن تكون مقدّمة للحال الأولى.

٣. علاقة التعاون والتكامل

حيث يكون هناك نوع من التواصل والتعاون والتنسيق بين هذه التيارات والجماعات داخل المجتمع، فتتكامل الجهود لمعالجة قضايا المجتمع، ويكون هناك ما يشبه تقاسم الأدوار، وهذه هي الصورة المثلى التي ينبغي الوصول إليها.

كيف يتحدّد شكل العلاقة بين التيارات؟

إن تحديد شكل العلاقة بين الجماعات والتيارات الفاعلة في أيِّ مجتمع، يعتمد على عاملين أساسين، هما:

١. مستوى الوعي عند القيادات.

حينما يكون هناك نضج ووعي عند قيادات التيارات، يكون لها دور في توجيه أتباعها وجماهيرها ومسيرة الحالة في المجتمع إلى أن تكون العلاقة بين التيارات علاقة إيجابية، وبالعكس من ذلك إذا انعدم الوعي والنضج،

وسادت حالة الأنانية والتوسّل بالوسائل الملتوية من كل فئة تجاه الفئات الأخرى، أو الأسوأ من ذلك أن تسود حالة تشيع فيها النيّات السيئة بإلغاء كل طرف للأطراف الأخرى، فهنا لا تكون العلاقة بين هذه الجماعات والتيارات علاقة إيجابية.

ومسألة النضج والوعي لدى القيادات، له علاقة بمسألة التجربة والخبرة في العمل الاجتماعي، فإذا كانت التيارات لا تزال في طور النشء والحداثة في التجربة، فإن هذا ينعكس على الأسلوب المتبع في العلاقة فيما بينها، بحيث تصل في بعض الأحيان إلى حالة النزاع والخصومة والصدام.

ومن أبرز الأمثلة على هذه النقطة التجربة اللبنانية، حيث إن التيارات اللبنانية بعدما جرّبوا الحرب الأهلية وصلوا إلى حدّ من النضج والوعي السياسي، قادهم إلى أن الحل الأمثل هو التعاون والحوار والتواصل فيما بينهم كجماعات وأحزاب وقوى.

٢. مستوى البيئة الثقافي والسياسي

التيارات والجماعات هي جزء من المجتمع الذي تعيش فيه، وتتأثر بالحالة السياسية والثقافية السائدة في المجتمع، فإذا كانت تعيش في جوّ يسوده النظام والقانون، وحرّية الرأي والعمل، فهذا الوضع السياسي يجعل تلك التيارات والتجمّعات تسّير علاقاتها في الاتجاه الطبيعي والقانوني.

كما هو الحال الآن في الغرب، فهناك جماعات وأحزاب وحركات سياسية وثقافية واجتماعية، ضمن جوّ سياسي عام، يقنّن ويرشّد العلاقة فيما بين هذه التكتّلات.

أما إذا كان الوضع السياسي لا يتيح فرصة لوجود جماعات، ولا يعترف بوجود قوى أهلية تعمل في المجتمع، وليس هناك حالة من حرّية العمل الثقافي والسياسي والاجتماعي، هذه الحالة تنعكس سلبيًا على واقع الساحة الاجتماعية، وعلاقات التيارات مع بعضها.

وإذا كانت تسود في المجتمع ثقافة تسامح واحترام للرأي الآخر، فإنها تساعد على ترشيد العلاقة بين التيارات، أما إذا كانت الثقافة السائدة ثقافة إقصاء وإلغاء، خاصة ضمن العناوين الدينية، وهذا مما ابتليت به ساحتنا الدينية، فنجد من يعتبر نفسه فيها وكأنه يمثّل اللَّه والشرع في الأرض، وبالتالي فإن أيّ طرف يختلف معه فكأنه يختلف مع اللَّه والشرع والحقّ، ويستحق كل تُهم الضلال والابتداع والشرك والمروق من الدين، إن المجتمع الذي يعيش هذه الحال من الثقافة لا تترشّد فيه العلاقة بين تياراته، لأن هذه التيارات تتنفّس من هذا الهواء الملوّث بهذه الأفكار الإلغائية العدوانية، وبالتالي فإن أبناء هذه التيارات يتأثرون في علاقاتهم مع بعضهم البعض بهذا الجوّ السائد.

التيارات الاجتماعية وترشيد العلاقة

ظهرت وتظهر بعض التيارات والجماعات في مجتمعنا المحلي، إمّا بعناوين مرجعية أو ثقافية، وهذه حال إيجابية في المجتمع، لأن المجتمع الراكد لا تظهر فيه تيارات، بينما المجتمع الذي تشغله الفاعلية والحراك الاجتماعي والثقافي تتعدّد تياراته وتوجهاته.

ومجتمعنا الآن يعيش هذه المرحلة، فهناك تيارات تعبّر عن نفسها

بأشكال مختلفة من التعبير، ومن المفترض أن ترشّد العلاقة بين مختلف هذه التيارات والتوجّهات، وأن توجّه باتجاه التنافس الإيجابي لخدمة المجتمع، تطبيقًا لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[سورة المطففين، الآية: ٢٦].

وعندما نريد أن نطبّق هذه الآية على واقعنا اليوم، من المفترض أن نسعى لأن يكون هناك تنافس إيجابي في خدمة المجتمع، ضمن نطاق الجمعيات الخيرية، والأندية الرياضية، والمنتديات الثقافية، وإقامة الشعائر الدينية، وضمن مختلف الأطر والأنشطة، كالانتخابات البلدية وانتخابات غرفة التجارة وسائر المجالات المتاحة.

ولتوجيه هذا التنافس في الاتجاه الإيجابي لا بدّ من توفر أربعة أمور، هي:

١. **الاعتراف والاحترام المتبادل**

إن مشكلة كثير من المجتمعات وجود قوّة أو تيار سائد، فلا يعترف بانبثاق تيار جديد ونشوء قوّة جديدة، بل لا يرى أن لها الحقّ في الظهور على الساحة والتحرّك فيها.

وهذا احتكار وتعصّب، فللجميع الحقّ في العمل، ولا يحقّ لجماعة أو فئة أو فرد أن يمنع الآخرين من ذلك.

٢. **الوسائل المشروعة للتنافس**

من الطبيعي أن تسعى كل مجموعة أو طرف لكسب أكبر قدر من

الجمهور، وساحة أوسع للعمل، ولكن من المهم أن تكون الوسائل المستخدمة للكسب وسائل مشروعة، ومن المفترض أن تبتعد هذه الوسائل عن أسلوب التشهير والاتهام والتشكيك في النيّات والأهداف، وأن يكون هناك التزام بالأخلاق الفاضلة.

٣. الانفتاح والتواصل

مما يؤسف عليه أن تكون في المجتمع تيارات وجماعات فاعلة ولا يكون بينها أيّ نوع من التواصل والانفتاح.

وعندما ينعدم التواصل تكثر الشائعات بين كل فريق وآخر، بسبب حالة القطيعة.

وبخصوص هذه النقطة كثيرًا ما تتوتّر العلاقة بين التيارات المختلفة بسبب مواقف فردية.

إذ يكون لكل جماعة أتباع، وقد يتصرّف بعضهم أو أحد الأفراد منهم تصرفًا خاطئًا تجاه جماعة مقابلة، ويُحمل هذا التصرف على الجماعة ككل، وغالبًا ما تتطور الأمور إلى حالة من الصراع والتصادم. فإذا كان هناك تواصل وانفتاح بين الأطراف، تتقلص هذه الاحتمالات.

٤. التعاون والتكامل

وهو المستوى الأرقى في العلاقة بين التيارات، فهذه التيارات والجماعات تعمل في مجتمع واحد، فمن المفترض أن يرتفع مستوى العلاقة بينها إلى نوع من التنسيق والتكامل، بحيث تحاول كل جهة أن تستفيد من الجهة الأخرى

بما يرتقي بمستوى العمل. ويوحّد الجهود نحو خدمة المصلحة العامة، ويمنع حالات الصدام والنزاع الضارة بمستقبل المجتمع.

نحو مبادرات لخدمة المجتمع

في أعماق نفس الإنسان نوازع وميول كثيرة، بعضها باتجاه الشرّ، وأغلبها باتجاه الخير، يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[سورة الشمس، الآيتان: ٧ – ٨].

وأي نازع وميل في نفس الإنسان يحتاج إلى اكتشاف وتنمية ورعاية. فنجد أن بعض الناس تنبثق مواهبهم الفنية أو الأدبية، أو العلمية، أو غيرها، وهي في الأصل استعدادات موجودة في عمق الإنسان، لكن هناك من يكتشفها وهناك من يهملها.

فمثلًا الاندفاع إلى خدمة الناس والقيام بعمل الخير موجود في أعماق نفس كل إنسان، لكن بعض الناس يكتشفون هذا النازع فينمّونه ويستجيبون له، فيصبحون كما عبّر عنهم الحديث الشريف مفاتيح للخير، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : «إنَّ من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشرّ، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى

لمن جعل اللَّه مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل اللَّه مفاتيح الشر على يديه»، وعن سهل بن سعد ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن هذا الخير خزائن، لتلك الخزائن مفاتيح، فطوبى لعبد جعله اللَّه مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر، وويل لعبد جعله اللَّه مفتاحًا للشر مغلاقًا للخير»[١]، وجاء في دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين ﷺ: «وأجرِ للناس على يديَّ الخير»[٢].

تنمية نوازع الخير

الاتجاه إلى فعل الخير حال فطرية في نفس الإنسان، لكن تنمية هذه الحالة تحتاج إلى عوامل وأسباب، منها:

١. **توثيق الصلة باللَّه:**

فالإنسان كلما كان متصلًا باللَّه راجيًا لثوابه ورضاه، خائفًا من عذابه وعقابه، كان ذلك دافعًا له لعمل الخير وخدمة الناس، حيث يرجو بذلك نيل الثواب.

٢. **الوعي الاجتماعي:**

امتلاك الوعي يجعل الإنسان أكثر اندفاعًا نحو عمل الخير؛ لأن الوعي يرشد الإنسان إلى أن إقدامه على العمل الخيري ينفعه شخصيًّا كما ينفع المجتمع الذي هو عضو فيه، وبالتالي ينعكس تقدّم المجتمع عليه وعلى

(١) محمد ناصر الدين الألباني. صحيح سنن ابن ماجة، ج١، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، (الرياض: مكتبة المعارف)، ص٩٦، حديث ١٩٥ وحديث ١٩٦.

(٢) الإمام علي بن الحسين ﷺ، صحيفة زين العابدين، دعاء مكارم الأخلاق، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ، (القطيف: أطياف للنشر والتوزيع)، ص٩٢.

أبنائه.

٣. الأجواء الدافعة:

هناك أجواء تدفع الإنسان لعمل الخير وتشجّع هذه النوازع في نفسه، كما إذا وفّقه اللَّه لرفقة أهل الخير، حيث يكون ذلك دافعًا له أن يحاكيهم ويماثلهم.

٤. التشجيع الاجتماعي:

المجتمع الذي يشجّع على الخير يكثر فيه المقبلون على عمل الخير، بينما المجتمع الذي يثبّط ويعرقل الساعين للأعمال الخيرية تقل فيه الفعاليات الخيرية.

إننا نجد في تاريخنا الإسلامي وفي تاريخ البشرية، وفي حاضرنا كيف أن أناسًا يوفقهم اللَّه تعالى لعمل الخير وخدمة الناس، ونجد آخرين يبخلون ولا يقدمون خدمة لأبناء مجتمعهم.

إن الإنسان إذا نمّى حبّ عمل الخير في نفسه يحسّ بلذّة وارتياح، ويشعر بالسعادة والغبطة كلما أنجز شيئًا وقدّم خدمة للآخرين، كما يشعر باللذّة مَن يربح في تجارته، أو يحقق شيئًا من مصالحه ورغباته.

وهذا الشعور بالفرح والسعادة هو ما يشجّعه على الاستمرار في عمل الخير ويدفعه باتجاهه.

لكن البعض من الناس يُسلب الشعور بلذة عمل الخير، بل يثقل عليه القيام بذلك.

ولتقريب هذه الفكرة يمكن تشبيه هذا الشعور بِمَن يملك حسًّا وذوقًا أدبيًّا، حيث يطرب ويتفاعل لسماعه القصيدة الشعرية، لأنه يتذوّق الأدب، بينما لو سمع القصيدة مَن لا معرفة له بالأدب، ولا ذوق أدبيًّا لديه فإنه لن يتفاعل مع أجواء القصيدة بل قد يراها مضيعة للوقت.

وكذلك الحال في الفن التشكيلي، فالبعض قد يدخل معرضًا للفن التشكيلي فيتصفّح اللوحات المعروضة متأملًا متفاعلًا أمام كل لوحة، وعلى العكس من ذلك قد يمرّ شخص آخر على هذه اللوحات مرورًا سريعًا، لأنه لا يملك الاهتمام والذوق الفنّي.

إن التفاعل مع عمل الخير من هذا النوع، فبعض الناس يشعر بلذّة إذا خدم إنسانًا أو أقام مشروعًا، بينما البعض الآخر لا يكترث بمثل هذه الأمور ولا يتفاعل معها.

والمبادرة لعمل الخير تتجلى في المظاهر التالية:

الدعوة إلى الخير

يستطيع الإنسان أن يكون باعثًا نحو عمل الخير ومشجعًا عليه، وذلك بدعوة الآخرين ودفعهم إلى القيام بما تتطلبه حاجات المجتمع.

وكم من كلمة طيبة كانت سببًا لخير كثير وإنجازات كبيرة! يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤-٢٥].

وقد ورد في الحديث عنه ﷺ : «الدال على الخير كفاعله»[١]، وعنه ﷺ: «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله»[٢] ، بالطبع فإن تشجيع الآخرين على عمل الخير، لا يأتي من فراغ ولا يقوم به كل أحد، إنما يتبنّاه من يحمل تطلّعات الخير، ويهتم بقضايا المجتمع، ويكون ذهنه منشغلًا بخدمة الناس، فتنطلق الدعوة إلى الخير من أعماق قلبه، بصدق واهتمام، مصحوبة بجهد ذهني لعرضها على شكل مشروع عملي قابل للتطبيق والتنفيذ.

لقد كان المرجع الديني الراحل السيد محمد الشيرازي ﷺ أروع نموذج عرفته في مجال الدعوة إلى الخير. فلا يكاد يلتقيه شخص إلّا ويطرح عليه مشروعًا يتناسب مع وضعه وبيئته، إما تأليف كتاب، أو إنشاء مسجد، أو إقامة مؤسسة، أو تبنّي حركة باتجاه خدمة دينية أو اجتماعية.

كان ذهنه وقّادًا وكأنه مخزن أفكار ومشاريع، وكان يبذل جهدًا في إقناع من يخاطبه فردًا أو مجموعة، بالتصدّي لعمل خير، عبر ذكر النصوص الدينية، واستعراض الحقائق والأرقام، واستحضار القصص والشواهد.

وقد رأيت وقرأت عن كثيرين من العاملين الذين تفاعلوا مع تشجيعه ودعوته، وتحققت على أيديهم إنجازات وخدمات كبيرة في مختلف ميادين خدمة الإسلام والمسلمين.

السعي والمطالبة

هناك أمور كثيرة يحتاجها الناس يمكن أن تقوم بها الدولة، أو الجهات

(١) وسائل الشيعة. ج١٦، ص١٢٣، حديث ٢١١٤٥.
(٢) أبو داؤد سليمان بن الأشعث السجستاني. سنن أبي داؤد، ج٢، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، (بيروت: دار الجنان) ص٧٥٥، حديث ٥١٢٩.

المتصدّية لأمور الدين والمجتمع، ولكن تنفيذها بحاجة إلى من يطرح الاقتراح ويطلب ويتابع التنفيذ.

إن الجهات المعنية قد لا تعرف بعض حاجات المجتمع وقضاياهم، وقد يكون هناك تقصير لدى بعض الأجهزة التنفيذية، وحين يتصدّى بعض المواطنين لإبلاغ المسؤولين، وتبيين الحاجات والنواقص، فإن قسمًا منها على الأقل ستتم معالجته. وقد لاحظنا شواهد مختلفة على ذلك. وبحمد اللَّه، فإن الوصول إلى المسؤولين والتخاطب معهم أمر ميسور في بلادنا.

ولوسائل الإعلام المحلية دور إيجابي على هذا الصعيد، حيث تنشر تحقيقات عن بعض المشاكل والنواقص التي يعانيها المواطنون في هذا المجال أو ذاك، مما يلفت نظر المسؤولين، ويكشف تقصير بعض الأجهزة والموظفين، فيتم التدارك والمعالجة.

وبعض القضايا والحاجات ترتبط بالجهات الأهلية كالمؤسسات الاجتماعية، ورجال الأعمال، وعلماء الدين، فإذا كان هناك من يلفت نظرهم ويقترح عليهم، ويقدم لهم المشاريع والبرامج، فإن في معظمهم خيرًا كثيرًا واستجابة طيبة.

وعلينا عندما نتحرّك في مثل هذه الأمور، أن نحرّك الآخرين معنا حتى يكثر المطالبون، وتنتشر مثل هذه الحال الإيجابية في المجتمع.

ومما يؤسف عليه أن نسمع الكثيرين في المجتمع ممن يشتكون من بعض المظاهر السلبية أو من نقص في بعض الإمكانات، أو من سوء خدمة

المواطنين في بعض الدوائر، ومع ذلك لا تجد من يتحرّك من أجل الإصلاح والتغيير.

إن التحرّك في هذه الأمور ذات الشأن العامّ من مصاديق دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام : «وأجرِ للناس على يديَّ الخير».

قد يقول البعض بأن هذه المساعي قليلًا ما تجدي، ولكننا في ثقافتنا الدينية نجد أن مجرّد السعي للخير فيه ثواب وأجر.

ونجد في كثير من الأحيان عندما يكتب أحد الصحفيين في الجرائد المحلية عن حاجة إنسان مريض أو فقير ويعرض مشكلته، ما هي إلّا أيام حتى يتصل أحد المحسنين بالجريدة ويتبرّع بحل مشكلة هذا المحتاج.

إن اهتمام بعض الكتّاب ببعض المشاكل الاجتماعية يؤدي في كثير من الأحيان إلى حلها، وهذا دليل قوي على أن أعمال الخير في بعض مواردها قد لا تحتاج إلى أكثر من المطالبة والمتابعة سواء مع الجهات الرسمية أو الأهلية.

المبادرة إلى عمل الخير

كل مجتمع يحتاج إلى مبادرات جادّة لعمل الخير، وقد تحدّث القرآن الكريم في آيات كثيرة عن فضل المسارعة إلى فعل الخير، يقول تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾، ويقول تعالى: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٤]، وورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «عليكم بأعمال الخير فتبادروها ولا يكن غيركم أحقّ بها

منكم»[١].

ومن المؤسف أن نرى الشعوب الأخرى غير الإسلامية تبادر إلى تأسيس مختلف أعمال الخير في مجتمعاتها وعلى مستوى العالم، بينما تنخفض هذه الحال في مجتمعاتنا الإسلامية، نشرت جريدة الحياة تقريرًا عن معهد هدسون للازدهار العالمي بعنوان: «مؤشر التبرعات الخيرية عبر العالم» يتحدّث هذا التقرير عن الشعب الأمريكي والتبرعات الخيرية من الأمريكيين، فيشير إلى أن السجلات المدونة تضمنت التبرع بمبلغ ٧١ مليار دولار للقضايا العالمية من قبل المنظمات الخيرية الأمريكية والمؤسسات الدينية والجامعات والشركات.

ويشير التقرير إلى أن قسمًا من هذه التبرعات هي من المهاجرين الذين هاجروا إلى أمريكا من بلدان أخرى، حيث يبعثون بالأموال إلى مناطقهم، وتبلغ ٤٧ مليار دولار، في حين تصل تبرعات الأمريكيين إلى المناطق الأخرى ٢٤ مليار دولار.

ويتحدث التقرير عن أن نصف الراشدين الأمريكيين تقريبًا يؤدون عملًا تطوعيًّا، بينما لو عملنا إحصاءً في مجتمعاتنا سنجد أن نسبة العاملين في المجال التطوعي تشكل نسبة قليلة جدًّا لا تكاد تذكر.

ومما يذكره التقرير أن المنظمات الأمريكية الخاصة والتطوعية وحدها قدّمت مبلغ ٩,٧ مليار دولار إلى الأقطار النامية. وأنه خلال العقد الماضي

(١) عبدالواحد الآمدي التميمي. غرر الحكم ودرر الكلم.

زادت المؤسسات الخيرية في أمريكا بنسبة ٧٧ ٪، وزاد العطاء من الناس لهذه المؤسسات بنسبة ١٠٠ ٪[١].

إن كل واحد منّا مطالب بأن يكون جزءًا من عمل تطوعي في المجتمع، ولا يصحّ لأحد أن يقبل لنفسه أن يكون متفرّجًا على حاجات المجتمع وأوضاعه، وأن يطالب نفسه بدور وأن يكون جزءًا من أيّ مؤسسة خيرية اجتماعية، ففي ذلك كبير الثواب والأجر عند اللَّه سبحانه وتعالى، وذلك هو السبيل لتقدّم المجتمع.

(١) جريدة الحياة. العدد ١٥٧٢١، الخميس٢٠ نيسان ٢٠٠٦م الموافق ٢٢ربيع الأول ١٤٢٧هـ، ص ٢٣.

المثقف ومسؤولية الجهر بالرأي*

إقصاء الآخر أزمة تعاني منها أغلب المجتمعات العربية والإسلامية، لكنها تتفاوت في درجة الكثافة والشدة. وترتبط هذه الأزمة بثلاثة عوامل أساس، تنتج هذه الأزمة وتغذيها وتفرضها على المجتمع.

العامل الأول: الفهم الديني السائد في هذه المجتمعات الذي يعتبر الرأي الآخر ضلالًا ومنكرًا تجب محاربته وإزالته.

والعامل الثاني: سياسات الأنظمة الحاكمة التي ترفض وجود الرأي الآخر المختلف مع توجهاتها ومواقفها، وهذا ما مارسته شتى الأنظمة في البلاد العربية والإسلامية، من اشتراكية وقومية وليبرالية وإسلامية، إن بعض العلمانيين والناقدين للحالة الدينية يتحدثون عن إقصاء الآخر، وكسمة للتوجه الديني فقط، وهذا تجاهل للواقع، فالماركسية في مواقع

* نشر في صحيفة المدينة. تصدر عن مؤسسة المدينة للصحافة والنشر، ملحق الأربعاء الثقافي، عدد ١٤٨٦٠، بتاريخ ٨ ذي القعدة ١٤٢٤هـ

تسلطها مارست أشدّ القمع لمخالفيها، والبعثيون في العراق مثلًا فتكوا بالحوزة العلمية في النجف، وخنقوا كل النشاط الإسلامي للسنة والشيعة. وكذلك فعلت القومية الناصرية في مصر.

أما العامل الثالث: فيتمثل في التربية والأعراف الاجتماعية التي تربي الفرد على أساس أن إبداء الرأي المخالف للأب أو لشيخ القبيلة أو للرئيس في الإدارة أو لعالم الدين هو إساءة أدب وخلافًا للاحترام والتقدير. وقد تترتب عليه ردود فعل غاضبة وإجراءات عقاب.

إنه لا يمكن تجاوز هذه الأزمة إلّا بمعالجة العوامل التي أنتجتها وفرضتها على واقع مجتمعاتنا.

لا بد من إعادة النظر في هذا الفهم السائد للدين في أوساطنا، فإذا كان المسلم يثق بصحة عقيدته ورأيه الديني، ويرى أنه مطالب شرعًا بمحاربة الضلال الذي يمثله الرأي الآخر، فعليه أن يعرف أن مواجهة الرأي تكون بالرأي، أما المنع والقمع والإلغاء والإقصاء، فهو يؤدي إلى نتيجة عكسية، حيث يمارس الرأي الآخر دوره في الخفاء ويتقوى بعامل التحدي، وقد تفاجأ بانتشاره وكسبه لمقومات القوة التي راكمها بعيدًا عن الأضواء.

لقد دعا القرآن الكريم إلى مواجهة الرأي الآخر بأفضل أساليب الحوار وأخلاقيات التعامل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، بل نهى عن استخدام لغة الإساءة للآخر عند الحوار معه ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. إن القرآن الكريم يدعو الآخرين لإبداء رأيهم وإظهار حججهم وأدلتهم ﴿قُلْ هَاتُوا

بُرْهَانَكُمْ﴾، ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾.

من ناحية أخرى، فإن باب الاجتهاد في فهم الدين مفتوح، ولا يصح لأحد أن يحتكر تفسير الدين وفهمه، ويتهم كل رأي آخر بأنه ضلال وابتداع، لأن من حق الآخرين أن يواجهوه بنفس المنطق، وإذا كان يعتقد أنه يمتلك الأدلة القاطعة على صواب وصحة رأيه فإن الآخرين يعتقدون لأنفسهم ذلك أيضًا.

من ناحية أخرى، فإن سياسات الحكومات هي المؤثر الأكبر في واقع مجتمعاتنا، فإذا ما أتاحت الحكومة فرصًا متكافئة لجميع الأطراف، وخاصة في مجال الإعلام والعمل الثقافي والاجتماعي، فستكون التعددية والتعايش السلمي بين فئات المجتمع هو الحال القائم. كما نجد ذلك في كثير من البلدان.

أما الانحياز لجهة ما ووضع كل الإمكانات تحت تصرفها وحرمان الآخرين من التعبير عن رأيهم ووجودهم فستكون النتيجة الحتمية كذلك هي الأحادية والاستبداد الفكري.

بعض الجهات تمارس دورًا قمعيًّا يكرس الاستبداد والأحادية ويغذي التطرف والتشدد من خلال مصادرة ما يخالف التوجه السائد.

ووسائل الإعلام في بلداننا كلها رسمية فالتلفزيون والإذاعة يعملان بنهج أحادي لا مجال فيهما إلا لرأي اتجاه واحد.

هنا لا بد أن يتحمل المثقف مسؤوليته بالاجهار برأيه والاستعداد

لدفع الثمن، مشكلتنا أن مثقفينا معظمهم لا يريد أن يدفع ثمنًا للحرية التي يتشدق بها ويدعو إليها، فهو يخشى أن يفوته مكسب من المكاسب.

إن مجتمعاتنا في مرحلة خطيرة حاسمة وعلى المثقفين أن يقفوا عمليًّا إلى جانب تطلّعاتهم ومجتمعاتهم فيكونون أكثر جرأة وشجاعة في مجال التعبير عن الرأي.

أما الجمهور فيجب أن يتجاوز موقف السلبية والتفرج على معاناة المفكرين والمثقفين وذوي الاجتهادات الإسلامية المختلفة.

المسألة ليست شخصية ترتبط بالكاتب أو المؤلف أو المكتبة التي تنشر الكتاب، بل ترتبط بحق الجمهور في المعرفة والاطّلاع.

لقد دفعت مجتمعاتنا ثمنًا باهظًا لاتجاهات التطرف والإرهاب ولا يمكن مواجهة التطرف إلّا بإقرار التعددية وحرية الرأي.

إلغاء شخصية الفرد

تحرير شخصية الإنسان الفرد، وإنقاذه من طغيان هيمنة المجتمع على فكره وسلوكه، كانت مهمة محورية لرسالات الأنبياء، ذلك أن الفرد في المجتمعات البدائية والإقطاعية والمجتمعات التي يحكمها الاستبداد، يكون مسحوق الشخصية ، مسلوب الإرادة، لا حق له في التفكير، فهناك فكر سائد شمولي يمثل الحقيقة المطلقة، ولا حرية له في التعبير عن رأي آخر، فذلك كفر وزندقة وضلال وابتداع، ولا فرصة أمامه للاختيار في نمط السلوك وأسلوب العيش، فهو فرد في قطيع، ونسخة مكررة عن شخصية المجتمع لا تغاير فيها. إنه ذوبان كامل ينعدم فيه أي شعور بالذاتية والخصوصية.

وحين يأتي نبيّ إلى مجتمعه يدعو الناس إلى اللَّه، فإن دعوته تصطدم بهذا الواقع الذي لا يجرأ فيه الأفراد على الإصغاء لرأي آخر، أو نقاش فكرة جديدة، وهنا يتجه النبيّ لمعالجة جذور المشكلة، وهي ذوبان شخصية

الفرد، وتبعيته المطلقة للجماعة، وتجميده لعقله وإرادته.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن نضال الأنبياء لتحرير الإنسان من هيمنة الجماعة التي تلغي شخصيته وتصادر إرادته.

فالنبيّ محمد ﷺ يوجه دعوة مباشرة للأفراد بأن يعطوا لأنفسهم فرصة التفكير خارج الهيمنة الجماعية، وأن ذلك كفيل بتغيير مسار حياتهم.

يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[سورة سبأ، الآية: ٤٦]، وجميع الأنبياء كانوا يرفضون منطق تقليد السالفين وإتباعهم دون إعمال للفكر والنظر ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[سورة الزخرف، الآية:٢٢].

ويحذِّر اللَّه سبحانه أبناء المجتمعات البشرية من الطاعة العمياء للزعماء ومراكز القوى في المجتمع، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾[سورة الأحزاب، الآية:٦٧].

إن هذه الآيات الكريمة ليست مجرد تشهير بأقوام سابقين، بل هي بيان لمنهج إلهي في تقرير حرية الإنسان، وتحفيزه لممارسة إرادته، واستعمال عقله، حتى لا يقع تحت هيمنة الآخرين، واستلابهم لشخصيته.

وما كان يستجيب لدعوة الأنبياء إلّا من امتلك شجاعة التمرد والرفض لتلك الهيمنة، وقرر ممارسة حقه في التفكير والاختيار.

هكذا كان الدين في حقيقته وجوهره، دعوة تحرير لعقل الإنسان وإرادته، وسبيل خلاص من الخضوع والخنوع لغير اللَّه تعالى.

لكن المفارقة المثيرة في تاريخ الأديان هي تراجع الأمم والمجتمعات عن إنجازات عهود الأنبياء، ليعود الإنسان إلى أحضان الهيمنة الاجتماعية، ويقع في قبضة الاستبداد من جديد، تحت عباءة الدين، وتوظيف شعاراته وعناوينه، فيتحول الدين من حافز تحرر، ونهج نضال، إلى مبرر خنوع، وأداة قمع.

كما يحكي ذلك تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ومعظم تاريخ المسلمين بعد عهد النبوة والخلافة الراشدة.

فحينما عارض (اريوس ٣٣٦م) القول بإلوهية المسيح أُدين، وأحرقت كتبه، وحرّم اقتناؤها، وخلع أنصاره من وظائفهم، وحكم بإعدام من أخفى شيئًا من كتبه، أو آوى أحدًا من أتباعه.

وفظائع محاكم التفتيش التي أقامتها الكنيسة في تلك العصور أشهر من أن تذكر، فقد كانت تحاسب الأفراد ليس على آرائهم الدينية المخالفة فحسب، بل على أي رأي يتبنونه في قضايا الطبيعة والحياة، فغاليلو حكم عليه لأنه قال بحركة الأرض، وبلغ عدد من صدرت ضدهم أحكام عقوبات بسبب آرائهم أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ ألف شخص، منهم ٣٢,٠٠٠ ألفًا أعدموا حرقًا.

كما عانت المجتمعات الإسلامية في كثير من عهودها أوضاعًا شبيهة بممارسات محاكم التفتيش.

وهذا هو الحال العام في المجتمعات التقليدية التي لا تعترف للفرد

باستقلال شخصيته، ولا تسمح له بالتمتع بالحريات الشخصية، وتريده جزءًا من قطيع لا يشذّ عنه في رأي أو سلوك. فلا توجد شخصية مميزة للفرد، ولا خصائص يتميز بها عن الآخرين.

وكانت أنماط الحياة الاقتصادية المحدودة في المجتمعات التقليدية تكرّس واقع الانصهار، حيث كان الاعتماد على الصيد أو الرعي أو الزراعة، وجميع أفراد القبيلة يمارسون نفس الأعمال ويعيشون شكلًا واحدًا من الحياة الرتيبة.

ويمكن وصف حالة الذوبان وسحق شخصية الفرد في تلك المجتمعات بالسمات التالية:

- ليس للفرد تطلّع أو هدف يصبو إليه، لأنه لا يرى لنفسه وجودًا مستقلًا، يدفعه للتطلع والطموح، فهو جزء عضوي في جماعة تسيّره دون وعي أو إرادة منه.

كما قال شاعر قبيلة (غُزيّة):

وهل أنا إلّا من غُزيّة إن غوت غويت وأن ترشد غُزيّة أرشد

- فكريًّا: لا يحق له أن يفكر خارج إطار التفكير السائد في مجتمعه، ولا يجوز له أن يتبنى رأيًا مخالفًا.

إن عليه أن يثق بفكر الجماعة ويعتقد بصوابيته، فهو الحق المطلق، وما عداه ضلال وابتداع. وحتى في إطار التشريع الإسلامي، ومع الإقرار بمرجعية الكتاب والسنة، فإن عقلية القطيع والتبعية وروح التعصب

للجماعة، قد تسللت إلى الوسط العلمي الديني، حتى نقل عن أبي الحسن الكرخي قوله: «كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة أو منسوخة، وكل حديث كذلك فهو مؤول ومنسوخ»[١].

- سلوكيًّا: يلتزم الفرد بالعادات والأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع، وإن كانت كلفتها باهظة، أو لم يكن مقتنعًا بها؛ لأن استخفافه بشيء منها يعرضه للازدراء.

ليست أمامه خيارات في بناء حياته، فقد يسلب حق اختيار شريك حياته الزوج مثلًا، ويكون القرار بيد العائلة. وهكذا سائر مجالات الحياة.

ورغم أن تطور الحياة في المجتمعات البشرية قد فرض واقعًا جديدًا يتمتع فيه الفرد بقدر كبير من الحريات الشخصية، إلّا أن بعض المجتمعات لا زالت تصهر أفرادها بقسوة، عبر أنظمة الاستبداد السياسي، واتجاهات التزمّت الديني وصرامة الأعراف والتقاليد الاجتماعية.

(١) السيد سابق. فقه السنة، ج١، الطبعة الثالثة ١٩٧٧م، (بيروت: دار الكتاب)، ص١٣.

الاستخارة والتردد في القرار

قد يجد الإنسان نفسه عند اتخاذ قرار أنه في حالة حيرة وتردد، وأنه أمام أكثر من خيار، فهل يقدم على الأمر أو يحجم عنه؟ وهل ينجزه بهذه الطريقة أو بطريقة أخرى؟

ورغم أنه لا يكاد يسلم إنسان من الوقوع في حال الحيرة والتردد عند اتخاذ بعض القرارات، إلّا أن مستوى هذه الحال تختلف من شخص لآخر، من حيث ندرة أو تكرار حصولها، ومن حيث أسلوب التعامل معها.

فأكثر الناس تعتريهم حالة التردد حينما يجدون أنفسهم أمام حدث مفاجئ، أو قضية خطيرة ذات أثر بالغ على حياتهم ومصالحهم، وهذا أمر طبيعي.

لكن هناك من تلازمه حالة التردد في مختلف الأمور والمواقف، وهذه حال غير طبيعية.

إن للحيرة والتردد في اتخاذ القرار أسبابًا، من أهمها ما يلي:

أولًا: قصور إحاطة الإنسان بجوانب موضوع القرار، مما يجعله غير واثق من القدرة على إنجازه، أو غير مطمئن لسلامة نتائجه، أو لعدم اتضاح أفضل سبل وأساليب تحقيقه.

ثانيًا: تزاحم الرغبات والمصالح في نفس الإنسان، فهو يرغب في شيء، لكنه يخشى أن تفوته به رغبة أخرى، ويطمح لمكسب معين، لكن ذلك قد يكلفه ثمنًا لا يريد دفعه.

إنه يضطر حينئذٍ لتقديم مصلحة على أخرى، ولتحمل بعض الخسائر من أجل بعض المكاسب، مما يوقعه في دوامة الحيرة والتردد.

ثالثًا: ضعف الثقة والعزيمة، فهناك علاقة وثيقة بين حال التردد عند الإنسان وبين مستوى ثقته بنفسه، ومستوى عزيمته وإرادته. فأصحاب الثقة العالية بالنفس، والمتوفرون على قوة العزيمة، تقل عندهم موارد الحيرة والتردد في اتخاذ القرار، بينما يكون ضعفاء العزيمة والثقة بأنفسهم فريسة لتلك الحال غير السويّة من كثرة التردد والاضطراب في اتخاذ القرار.

وللعادة والممارسة أكبر الأثر على هذا الصعيد، حيث يتمكن الإنسان من تعزيز ثقته بنفسه، وتقوية عزيمته، حين يعتمد التفكير ويمارس الحزم، ولا يستجيب لحال التردد.

العقل وإدارة الحياة

من أوضح الأدلة على وجود اللّه تعالى وعظمته حاكمية النظام على الكون والحياة، فليس هناك عبث ولا فوضى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ١١٥]. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٩١].

إن كل ذرة في الكون وجدت لهدف محدد، وغاية مرسومة، وهي تسير وتتحرك ضمن نظام دقيق ومعادلة ثابتة، يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[سورة القمر، الآية: ٤٩]. ﴿قَدْ جَعَلَ اللّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[سورة الطلاق، الآية: ٣]. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[سورة الرعد، الآية: ٨].

وحين سخر اللّه تعالى الكون لخدمة الإنسان، فإنه تعالى منح الإنسان قدرة يعرف بها ويفهم من خلالها السنن الحاكمة على الكون والحياة، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[سورة البقرة، الآية: ٣١] وتلك القدرة هي العقل العظيم.

فبالعقل يكتشف الإنسان سنن الحياة وأنظمة الكون، ليستطيع الاستفادة من الكائنات والخيرات التي سخرها اللّه تعالى له، وليتمكن من إدارة حياته وتسيير شؤونه.

وبمقدار ما يتجه الإنسان لعقله، ويُعمل تفكيره، تتقدم معرفته، وتزداد إمكانيات تأثيره، وتتطور حياته.

لذلك فإن الإنسان مدعو للالتفات إلى هذا الكنز العظيم العقل، والثقة به، واستثمار قدراته الهائلة، والاستضاءة بنوره الكاشف في دروب الحياة.

إن على الإنسان أن يرجع لعقله عند أي مشكلة تواجهه، وللإجابة عن أي سؤال ينتصب أمامه، وحين يريد اتخاذ أي قرار، أو سلوك أي طريق، أو القيام بأي عمل.

وأخطر شيء على الإنسان، وأسوأ ما قد يقع فيه، هو إعراضه عن عقله، وغفلته عن الاحتكام إليه، والاهتداء بنوره، وحينئذٍ يكون فريسة الجهل والخرافة، وأسير الشهوة والهوى.

وبمقدار غفلته عن عقله يفقد من مستوى تميزه الإنساني، حتى ينحطّ إلى مستوى البهائم. كما يقول اللّه تعالى في صفة الغافلين عن عقولهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[سورة الأعراف، الآية: ١٧٩].

ولأن الإنسان معرض للوقوع في هذا الخطر العظيم، خطر الغفلة عن العقل، فقد بعث اللّه تعالى الأنبياء والرسل لتحذير الإنسان من الغفلة عن عقله، ولإرشاده لأفضل طرق الاستفادة من العقل، بعيدًا عن الحواجز والحجب والمؤثرات المشوشة على التفكير.

لذلك نرى تركيز القرآن الكريم على مسألة العقل والتعقل، وما يرتبط به من مناهج التفكير والعلم والنظر والتدبر، حيث وردت لفظة العقل والتعقل في آيات القران الكريم تسعًا وأربعين مرة، كقوله تعالى: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ التي وردت ثلاث عشرة مرة. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ التي وردت سبع مرات.

أما الفكر والتفكر فقد ورد في ثمانية عشر موضعًا من القرآن الكريم، وجاءت لفظة الفقه والتفقه في عشرين موردًا.

أما لفظة العلم والتعلم فقد وردت في مئات الآيات.

إضافة إلى الآيات التي تتحدث عن التدبر والتذكر والنظر.

كما جاء في السنة الشريفة عدد كبير من الأحاديث والروايات التي تؤكد على مرجعية العقل ومحوريته في حياة الإنسان، بشكل مطلق.

- ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «إنما يدرك الخير كله بالعقل»[١].
- وعنه ﷺ: «استرشدوا العقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا»[٢].
- وعنه ﷺ: «إذا أردت أمرًا فتدبر عاقبته، فإن كان خيرًا فأمضه، وإن كان شرًا فانته»[٣].
- ويقول الإمام علي عليه السلام: «العقل صلاح كل أمر»[٤].
- وعنه عليه السلام: «لا يستعان على الدهر إلا بالعقل»[٥].
- وعنه عليه السلام: «ولا يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنِ اسْتَنْصَحَهُ»[٦].

---

(١) بحار الأنوار. ج٧٤، ص ١٥٨.
(٢) المصدر نفسه. ج١، ص٩٦.
(٣) كنز العمال. ج٣، ص٩٩، حديث ٢١٠٥٧، ومثله في الكافي. ج٨، ص١٣١، حديث ١٣٠.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٥) بحار الأنوار. ج٧٥، ص٧.
(٦) المصدر نفسه. ج١، ص٩٥.

■ وعنه ﷺ: «بالفكر تنجلي غياهب الأمور».

هذه النصوص الدينية وأمثالها، تؤكد على مرجعية العقل، وأن على الإنسان أن يعود إلى عقله، وأن يُعمل فكره لمواجهة أي مشكل في حياته، فيتخذ قراره بناءً على ما يهديه إليه عقله، ويقوده تفكيره، مع التزام منهجية التفكير السليم.

وما حققه الإنسان من إنجازات علمية وعملية ضخمة في مختلف مجالات الحياة هو أكبر شاهد على عظمة العقل، وقدرته على تجاوز الصعاب ومواجهة التحديات.

إن من أسباب تردد الإنسان في اتخاذ القرار ضعف ثقته بعقله، وعدم اجتهاده في ممارسة التفكير، مما يؤدي إلى ضمور نشاطه الفكري، وقد لا يلتفت الإنسان إلى ضوابط التفكير السليم، فتلتبس عليه الأمور، ويصاب بالحيرة والتردد.

الاستنارة بعقول الآخرين

قد يفكر الإنسان في موضوع تنقصه الإحاطة ببعض جوانبه، وقد تتعارض الانشدادات والميول داخل نفسه، وقد يعيش أجواء ضاغطة تدفعه نحو خيار أو آخر، فيجد نفسه عاجزًا عن اتخاذ القرار، وأسيرًا لحال التردد والحيرة.

وهنا عليه أن يلجأ إلى العقل مرة أخرى، عبر الاستنارة بعقول الآخرين ممن يثق بمنهجيتهم السليمة في التفكير، ويطمئن إلى صدقهم وخبرتهم في

ذات الموضوع، فيستشيرهم ويستعين بعقولهم، ليشاركوه في التفكير وإعمال النظر، وليتجاوز نقاط الضعف التي سببت له الحيرة والتردد.

ويشير حديث مروي عن رسول اللّه ﷺ إلى أن استشارة أصحاب الرأي تساعد الإنسان على الوصول إلى حالة الحزم والحسم، وتجاوز الحيرة والتردد، يقول ﷺ: «الحزم أن تستشير ذا الرأي»[١].

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «ما من رجل يشاور أحدًا إلّا هدي إلى الرشد»[٢].

ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «من شاور ذوي العقول استضاء بأنوار العقول»[٣].

وعنه عليه السلام: «إذا أنكرت من عقلك شيئًا فاقتدِ برأي عاقل يزيل ما أنكرته»[٤].

وعنه عليه السلام: «حق على العاقل أن يضيف إلى رأيه رأي العقلاء»[٥].

ويشير الإمام علي عليه السلام إلى أن من أهم مميزات الاستشارة كون الآخر الذي تستشيره خارج تأثيرات الضغوط التي تسبب للإنسان التردد، يقول عليه السلام: «إنما حُضَّ على المشاورة لأن المشير صرف، ورأي المستشير

(١) بحار الأنوار. ج٧٢، ص١٠٥.
(٢) الشيخ الطبرسي. مجمع البيان، ج٩، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٥٧.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم. ٨٦٣٤.
(٤) المصدر نفسه. ٥٧٥٤.
(٥) المصدر نفسه. ٤٩٢٠.

مشوب بالهوى»[١].

وعنه عليه السلام: «من شاور ذوي الألباب دلّ على الصواب»[٢].

بالطبع، فإن على الإنسان أن يشاور ذوي الاستقامة وأصحاب الخبرة والتجربة، يقول علي عليه السلام: «شاور في أمورك الذين يخشون اللّه ترشد»[٣].

وعنه عليه السلام: «خير من شاورت ذوو النهى والعلم وأولو التجارب والحزم»[٤].

وعن معلّى بن خنيس قال: قال أبو عبداللّه عليه السلام : «ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قبل له به أن يستشير رجلًا عاقلًا له دين وورع. ثم قال أبو عبداللّه عليه السلام : أما إنه إذا فعل ذلك لم يخذله اللّه»[٥].

دور الاستخارة

من أجل أن يتكامل الإنسان، ويستفيد من الطاقات التي أودعها اللّه تعالى في كيانه، ومن أجل أن تتبلور إرادته وتنصقل شخصيته، منحه اللّه تعالى حرية التفكير والحركة، فهو يفكر ويقرر، ويعمل ويتحرك، ضمن سنن الكون وأنظمة الحياة، ومن ثم يتحمل مسؤولية قراره وعمله.

ومن لطف اللّه تعالى بالإنسان، أرشده عبر رسله وأنبيائه إلى المنهج

(١) المصدر نفسه. ٣٩٠٨.
(٢) بحار الأنوار. ج٧٤، ص٤٢٠.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم. ٥٧٥٦.
(٤) المصدر نفسه. ٤٩٩٠.
(٥) بحار الأنوار. ج٧٢، ص١٠٢.

السليم للتفكير، والطريق الصحيح لاتخاذ القرار، والاتجاه الأفضل للحركة والعمل.

وذلك بإرشاد الإنسان إلى عقله، وتحذيره من الخضوع لأهوائه وشهواته، أو التأثر بعوامل التشويش والضلال.

فالعقل هو مرجعية الإنسان في إدارة حياته، كما تؤكد نصوص الشرع، ويؤيده واقع التقدم الذي حققه الإنسان في تطوير الحياة عبر العصور.

لكن مشكلة الإنسان تكمن في مدى استفادته من عقله، والتزامه منهجية التفكير السليم، وفي مستوى إرادته لمواجهة مختلف ضغوط الإضلال والانحراف، وعوامل الضعف والخطأ.

وحين يواجه الإنسان قضية تهمّه، وتتعدد أمامه الخيارات، فإنه بحاجة إلى درجة عالية من صفاء النفس، وثبات الفكر، وسلامة النظر، ليتخذ تجاهها القرار الموضوعي الصائب.

وهنا يلجأ الإنسان إلى ربه طالبًا منه التوفيق والسداد، مستلهمًا منه الطمأنينة والثقة، لكي يهتدي إلى أصوب قرار وأفضل رأي.

هذا الإقبال على اللّه، والتوجه إليه لتجاوز حالة التردد والحيرة في اتخاذ القرار، ولنيل توفيقه تعالى وتسديده، هو ما يطلق عليه في النصوص الدينية مصطلح الاستخارة.

والاستخارة معناها طلب الخير في الشيء، وهذا هو المعنى اللغوي، خار الشيء على غيره وانتقاه. اللّهم خر لي: أي اختر لي أصلح الأمرين،

واجعل الخيرة فيه، وعندما يقال: خار اللّه لك، أي أعطاك ما هو خير لك.

وقال الراغب الأصفهاني (توفي ٥٠٢هـ): «استخار اللّه العبد فخار له، أي طلب منه الخير فأولاه».

وقال ابن إدريس: «الاستخارة في كلام العرب الدعاء».

فالمعنى الحقيقي للاستخارة هو الدعاء وطلب الخير من اللّه تعالى، واستخار اللّه طلب الخير منه.

والنصوص التي تُرغّب الإنسان في الاستخارة، وتحذّر من الإقدام على عمل قبلها، إنما تقصد الاستخارة بهذا المعنى، أي الدعاء وطلب الخير من اللّه تعالى.

وتوجّه بعض النصوص إلى التقرب إلى اللّه تعالى بصلاة ركعتين، وقراءة سور أو آيات من القرآن الكريم، ومناجاة اللّه تعالى ببعض الأدعية المروية عن النبي ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام.

وهناك فهم آخر ونوع آخر من الاستخارة بمعنى المشورة مع اللّه تعالى، لكي يرشد الإنسان إلى القرار الصائب عبر بعض الطرق والأساليب الكاشفة، كالاستخارة بالقرآن الكريم، أو المسبحة أو الرقاع أو البنادق. وفي بعض أوساط الإيرانيين يستعملون الخيرة بالديوان المنسوب للإمام علي، أو ديوان حافظ الشيرازي.

وهناك مبالغة عند بعض الناس في الاستخارة بالمصحف الكريم

والمسبحة، اعتقادًا منهم أنها تكشف عن رأي اللّه تعالى في الموضوع الذي يستخيرون فيه.

وترتب على هذه المبالغة تجميدهم لعقولهم، فلا يبذلون جهدًا في التفكير وإعمال النظر، ولا يتجهون لاستشارة ذوي الرأي والتجربة، وإنما يبادرون للاستخارة في أي قضية وعند أبسط مشكلة.

كما أن البعض يستعمل الاستخارة في غير موضعها، كالطلاب الذين يستخيرون قرب الامتحانات على فصول المقررات التي يجب أن يركزوا عليها في المذاكرة والمراجعة. وكبعض الآباء الذين عطّلوا زواج بناتهم حتى فاتهم قطار الزواج، لأنهم يستخيرون عندما يأتيهم خاطب كفو.

والسائد في أوساط كثير من المتدينين أن نتيجة الاستخارة بالمصحف أو المسبحة تكشف عن الخير والصواب، لذا على الإنسان أن يلتزم تلك النتيجة. وربما دار في أذهان بعضهم وجوب الالتزام بنتيجة الخيرة، وأن مخالفتها حرام أو سبب للخطر.

صحيح أن هناك روايات واردة عن الاستخارة بالمصحف والمسبحة لكنها ليست بدرجة الصحة والاعتبار.

وإذا كان العمل بها بناءً على قاعدة التسامح في أدلة السنن، وثقة بالتجارب المتناقلة حولها، ولكونها متداولة عند المتشرعة، فإن ذلك لا يبرر الإفراط والمبالغة في استعمالها وغض الطرف عن السلبيات المترتبة على ذلك.

وقد يرى البعض أن نقد الاستخارة تشكيكًا في المعتقدات، وخروجًا على المسلمات، وطعنًا في عمل المتشرعة من المراجع والعلماء.

وبعض هؤلاء لم يكلف نفسه عناء البحث العلمي في الموضوع، ولا يعلم أن هناك رأيًا آخر في الوسط العلمي يستشكل في الاستخارة بالمصحف والمسبحة وأمثالها، كالمقدس الاردبيلي الذي يحتمل حرمة الاستخارة بمثل هذه الطرق، ويراها شبيهة بالاستقسام بالأزلام.

وقد أشار السيد اليزدي في العروة الوثقى إلى هذا الرأي بقوله في كتاب الحج في آداب سفر الحج ما نصه: «الاستخارة بمعنى طلب الخير من ربه، ومسألة تقديره له، عند التردد في أصل السفر، أو في طريقه، أو مطلقًا، والأمر بها للسفر وكل أمر خطير أو مورد خطر مستفيض، ولا سيما عند الحيرة والاختلاف في المشورة، وهي الدعاء لأن يكون خيره فيما يستقبل أمره، وهذا النوع من الاستخارة (أي الدعاء) هو الأصل فيها، بل أنكر بعض العلماء ما عداها مما يشتمل على التفوّل والمشاورة بالرقاع والحصى والسبحة والبندقية وغيرها، لضعف غالب أخبارها، وإن كان العمل بها للتسامح في مثلها لا بأس به أيضًا، بخلاف هذا النوع (الاستخارة بالدعاء) لورود أخبار كثيرة بها».

ومؤسف أن يطرح بعضهم أن نقد الاستخارة هو تشكيك في العقيدة، ومخالفة للمسلمات، مع تصريح مراجع بارزين بعدم ثبوت استحبابها. حيث أجاب السيد السيستاني حفظه اللّه عن سؤال: هل الاستخارة المتبعة عندنا الآن محبذة شرعًا أو واردة؟ بقوله: «يؤتى بها رجاءً عند الحيرة، وعدم

ترجح أحد الاحتمالات بعد التأمل والاستشارة»[١].

كما أجاب الشيخ التبريزي رحمه اللّه عن سؤال: ما هو الثابت استحبابه من أقسام الاستخارة؟ بقوله : «لم يثبت استحباب الاستخارة، ولكن بها رواية وهي مجربة»[٢].

وأخيرًا، فإني أتفق مع العلامة الطباطبائي فيما ذهب إليه من أن وظيفة الاستخارة حسم حالة التردد عند الإنسان فقط، دون أن يعني ذلك أن نتيجتها كاشفة عن مصلحة أو خير، تمامًا كما هو الحال لو حسم الإنسان تردده عبر تفكيره أو استشارته لأحد.

يقول السيد الطباطبائي في الميزان: «إذ لا شأن لهذا العمل (الاستخارة) إلا تعيين الفعل أو الترك، من غير إيجاب ولا تحريم، ولا أي حكم تكليفي آخر، ولا كشف عما وراء حجب الغيب من خير أو شر، إلا أن خير المستخير في أن يعمل أو يترك فيخرج عن الحيرة والتذبذب.

وأما ما يستقبل الفعل أو الترك من الحوادث فربما كان فيه خير، وربما كان فيه شر، على حد ما لو فعله أو تركه عن فكر أو استشارة، فهو كالتفكر والاستشارة، طريق لقطع الحيرة والتردد في مقام العمل، ويترتب على الفعل الموافق له ما كان يترتب عليه لو فعله عن فكر أو مشورة»[٣].

---

(١) السيد علي الحسيني السيستاني، الفقه للمغتربين، مسألة ٥٩٨، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ، (البحرين: دار كميل)، ص٣٤٤.

(٢) أبو القاسم الموسوي الخوئي. صراط النجاة في أجوبة الاستفتاءات، ج١، مسألة ١٥٣٤، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ، (الكويت: مكتبة الفقيه)، ص ٥٥٣.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ج٦، ص١١٨.

المحتويات

مقدمة ٥

المجتمع وصناعة الرؤية ٩

الفرص المتاحة ١٣

مؤسسات لصناعة الرأي ١٤

تنوع الآراء والخيارات ١٥

المشروع الوطني والحراك السلمي ١٧

التأسيس للتسامح الديني ٢١

الدين نشأة عائلية ٢٤

البيئة الاجتماعية محضن ديني ٢٦

داء التعصب والمصلحية ٢٨

الرؤية القرآنية ٢٩

القرآن المهجور ٣٣

اتخذوا القرآن مهجورًا ٣٤

مضامين القرآن ومناهجه ٣٥
برنامج حياة ٣٩
النظر في كتاب الكون ٤٠
أنظمة العلاقات الاجتماعية ٤٣
الشباب والعودة إلى القرآن ٤٧
حركة الوعي والثقافة في المجتمع ٥٥
الثقافة والوعي في حياة الإنسان ٥٧
الوعي الديني ٥٨
رؤية الدين ٦١
التثقيف الذاتي ٦٢
الحركة الثقافية ٦٤
إمكانات ومقومات ٦٥
التنمية الثقافية والإنفاق الأهلي ٦٧
مسؤولية النهوض ٧٠
الإنفاق على الشأن العام ٧٣
الاهتمام بالشأن الثقافي ٧٦
البابطين نموذج ريادي ٧٧
الوقف للإنماء الثقافي ٧٩
التغيير الاجتماعي وعنصر الزمن ٨٣
التيارات الاجتماعية والتنافس الإيجابي ٨٩
التعدّدية حالة إيجابية ٩٠

العلاقة بين التيارات الاجتماعية ٩٢
كيف يتحدّد شكل العلاقة بين التيارات؟..... ٩٣
التيارات الاجتماعية وترشيد العلاقة ٩٥
نحو مبادرات لخدمة المجتمع ٩٩
تنمية نوازع الخير ١٠٠
الدعوة إلى الخير ١٠٢
السعي والمطالبة ١٠٣
المبادرة إلى عمل الخير..... ١٠٥
المثقف ومسؤولية الجهر بالرأي ١٠٩
إلغاء شخصية الفرد..... ١١٣
الاستخارة والتردد في القرار..... ١١٩
العقل وإدارة الحياة..... ١٢١
الاستنارة بعقول الآخرين ١٢٤
دور الاستخارة..... ١٢٦
عنوان المؤلف..... ١٣٦

عنوان المؤلف

المملكة العربية السعودية
ص.ب: ١٣٢٢ القطيف ٣١٩١١
هاتف: ٨٥٥٥٢١٠ ٣ ٩٦٦+
فاكس: ٨٥١٢٦٠٠ ٣ ٩٦٦+
الموقع على الإنترنت: www.saffar.org
البريد الألكتروني: office@saffar.org